

سُورَةُ فَصَّلَتْ

حين يَتَكَلَّمُ الوحي فتستيقظ الأشياء

رحلة في بيان القرآن ،
وآيات الكون ، ومكابرة الإنسان ،
وشهادة الجوارح ، وطمأنينة
الذين قالوا ربُّنا الله

تأليف : رَدَّاد السَّلَامِيُّ

سُورَةُ فَصِّلَتْ

حين يتكلم الوحي فتستيقظ الأشياء

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

ليست سورة فصّلت من السور التي تسمح لك أن تبقى متفرجاً بعيداً عن المشهد. منذ افتتاحها الأول تشعر أن شيئاً ما يُفتح أمامك : ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم لا يكاد الوحي يبدأ حديثه حتى تتحرك الأشياء. يتكلم القرآن. وتتكلم السماء. وتتكلم الأرض. وتتكلم الأيام. وتتكلم الأمم البائدة من تحت ركام التاريخ. ثم يأتي يوم عجيب لا يعود فيه الإنسان قادراً على احتكار روايته عن نفسه؛ لأن سمعه يتكلم، وبصره يتكلم، وجلده يتكلم. وكأن السورة منذ أولها إلى آخرها تريد أن تقول: إن الوجود ممتلئ بالشهادة، وإن الصامت في عينك قد يكون عند الله شاهداً، وإن الإنسان وحده هو الذي يستطيع أن يضع حول قلبه جداراً يمنعه من سماع هذا الكون الناطق. إنها سورة البيان. ولهذا كان اسمها: فصّلت. فالوحي فيها ليس معنى غائماً، ولا حقيقة بعيدة، ولا إشارات تحتاج إلى أن يُنشل المراد منها من وراء الضباب.

بل هو : ﴿كَأَبُ فَصَّلَتْ آيَاتُ﴾

أي إن الحقيقة قد اقتربت. وأصبحت واضحة. وتم تفصيلها. وانقطعت كثير من أعمار الإنسان. ولكن المفارقة الكبرى التي تبني السورة مشاهدتها عليها هي أن وضوح الحقيقة لا يعني بالضرورة قبولها. فقد يرى الإنسان ثم يعاند. ويسمع ثم يستكبر. ويعرف ثم يفر. ومن هنا لا تصبح المشكلة في غياب البرهان، بل في هيئة القلب أمام البرهان. ولهذا ستجد في السورة فريقتين:

قوماً يقولون : ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾

وقوماً يقولون : ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

بين هذين الموقفين تتحرك السورة كلها. قلبٌ يصنع لنفسه غطاءً، وقلبٌ يفتح أبوابه لله. الأول يضيق بالوحي حتى يقول: لا نسمع. والثاني يستقيم حتى تنزل عليه الملائكة وتقول : ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

إنها المسافة الهائلة بين إنسانين كلاهما يعيش على الأرض نفسها، ويرى السماء نفسها، ويسمع القرآن نفسه؛ ولكن أحدهما ينتهي إلى وحشة النار، والآخر إلى حبة الملائكة.

المحطة الأولى

حين يكون أول ما تعرفه عن القرآن أنه نازل من الرحمة

قال تعالى : ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
ما أرق هذا المدخل. قبل أن تخبرك السورة بما في الكتاب، تخبرك من نزل الكتاب.
﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

كأن أول علاقة ينبغي أن تنشأ بينك وبين القرآن ليست علاقة الخائف من نصّ يترصد أخطأه، بل علاقة الإنسان برسالة جاءت إليه من الرحمة. إن الذي أنزل هذا الكتاب هو الرحمن الرحيم. وهذه المعرفة تغير طريقة القراءة كلها. فكل أمر ستقرؤه بعد ذلك وراءه رحمة. وكل نبي وراءه رحمة. وكل إنذار وراءه رحمة. وكل قصة انهيار أمة ستسمعها في السورة ليست تشفيًا من قوم هلكوا؛ بل جرسًا يوقظ الأحياء قبل أن يسلكوا الطريق نفسه. حتى الوعيد في القرآن وجه من وجوه الرحمة. لأن الرحمة ليست أن تترك الإنسان يسير نحو الهاوية دون أن تصرخ فيه. الرحمة أن تقول له قبل الحافة: انتبه. ولهذا كان القرآن تنزيلاً من الرحمن الرحيم. وحين تستقر هذه الحقيقة في القلب، يتحول التكليف من ثقل مفروض عليك إلى طريق فتحه الله لك لكيلا تضل.

ولعل من أعمق مشكلات الإنسان مع الوحي أنه ينظر أحياناً إلى الأمر الإلهي منفصلاً عن اسم الله الذي صدر عنه. يرى التكليف ولا يرى الرحيم. يرى الحد ولا يرى الحكيم. يرى المنع ولا يرى الحفيظ. أما القرآن فيعيد ترتيب الرؤية: اعرف الأمر أولاً. ثم افهم الأمر. فإذا علمت أن الذي أمرك هو الرحمن الرحيم، بدأت تبحث عن الرحمة المختبئة حتى فيما تشق به النفس.

ليست الكلمة في القرآن مجرد دلالة، بل كيفية دلالة
قال تعالى: ﴿كَتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۚ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

ها هنا يعرف القرآن نفسه. كتاب. لكنه ليس كتاباً مغلقاً متراكماً المعاني.
بل: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾.

والتفصيل ضد الإجمال الذي يترك النفس في التباس. كأن المعنى قد بُسِطَ أمام الإنسان حتى يستطيع أن يراه.
ثم قال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

والعربية هنا ليست مجرد وعاء لغوي حمل المعنى. إنها جزء من كيفية ظهوره. فالكلمة القرآنية لا تؤدي فكرة غسب؛ بل تحمل إيقاعها، وموضعها، وظلالها، وجرسها، وعلاقاتها بما قبلها وما بعدها. ولهذا فليست الكلمة في القرآن مجرد دلالة، بل كيفية دلالة. ليس المهم فقط: ماذا قال؟

بل: لماذا قالها بهذه الكلمة؟ ولماذا جاءت هنا؟ ولماذا قُدِّمَت هذه وأُخِّرَت تلك؟ ولماذا اختار صوتاً لغوياً دون آخر؟ إن البيان القرآني لا يحمل المعنى كما يحمل الوعاء الماء؛ بل يتشكل المعنى في داخله تشكل الروح في الجسد.
ثم وصف الكتاب بأنه: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

والقرآن لا يبني الإنسان بالخوف وحده، ولا بالرجاء وحده. إنه يقيم القلب بين جناحين. بشارة تمنعه من اليأس. ونذارة تمنعه من الغرور. ولكن الصدمة تأتي بعد كل هذا البيان: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾.

تأمل. لم يقل إنهم لم يفهموا.

بل قال: أعرضوا. والإعراض فعل إرادي. هو أن تكون الحقيقة أمام وجهك ثم تدير وجهك عنها. وهنا ندرك أن أعظم الحجب ليست دائماً حجب العقل. بل حجب الإرادة. قد لا تكون مشكلة الإنسان أنه عاجز عن معرفة الطريق. قد تكون مشكلته أنه لا يريد الطريق الذي عرفه.

ثم قال: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

مع أن الأصوات تصل إلى آذانهم. ولكن القرآن يسمي السماع الذي لا ينفذ إلى القلب لا سماعاً. كم من أذن تستقبل الصوت، ولكن القلب لا يستقبل المعنى. وكم من إنسان عاش سنوات يسمع القرآن ولم يسمعه بعد! لأن القرآن لا يقيس السمع بحركة الهواء عند طبلة الأذن. بل بما يحدث بعد السماع في الداخل.

الإنسان الذي صنع بيده المسافة بينه وبين الله
قال تعالى : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾

إنهم هنا لا يناقشون المحجة. بل يصفون حالة الانغلاق.
﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾.

القلب مغلف.

﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾.

الأذن مثقلة.

﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

ثم جدار كامل. قلب مغلق. وأذن مغلقة. ومسافة مغلقة. إنها هندسة الإعراض. وحين
يصر الإنسان طويلاً على رفض الحقيقة، يبدأ ببناء منظومة نفسية تحميها منها. لم يعد يحتاج
في كل مرة إلى الرد على البرهان. يكفي أن يصنع بينه وبين البرهان حاجزاً. وهذا يحدث
في كل عصر. فالإنسان قد يخاف الفكرة لا لأنها ضعيفة، بل لأنها إن دخلت قلبه ستلزمه
بتغيير حياته. ولهذا يفضل أحياناً ألا يسمع. إن الحقيقة ثقيلة على الإنسان حين تكون
كلفتها أن يتغير. فليس كل رفض ناتجاً عن ضعف الدليل. بعض الرفض ناتج عن قوة
الدليل. لأنه يهدد النظام الداخلي الذي بنى الإنسان عليه مصالحه وشهواته وصورته عن
نفسه. ثم تنتهي الآية بلهجة قطعية : ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾.
كأنهم يقولون: لك طريقك ولنا طريقنا. ولكن المنزع أن الطريقين لا يظلال متوازيين إلى
الأبد. هناك نقطة في المستقبل يلتقيان عندها: يوم الحساب.

عظمة الرسول في أنه لا ينافي الله مقامه
قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ
وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾

كان يمكن أن يرد النبي ﷺ على استعلائهم بتعداد خصائصه. لكن الوحي يأمره أن يبدأ
بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

إن النبوة لا ترفع الإنسان إلى الألوهية. وعظمة النبي في الإسلام لا تقوم على انتزاع شيء
من خصائص الله، بل على كمال عبوديته لله. بشر مثلكم. لكن هناك فرقاً واحداً يفتح
السماء على الأرض: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

ومن عجيب دقة العبارة أن مركز الرسالة ليس شخص الرسول في ذاته، بل ما أوحى إليه:
﴿إِنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

في قلب كل الرسائل حقيقة واحدة: الله واحد.

ومن هنا يأتي الأمر: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾.

ولم يقل فقط: استقيموا.

بل: إليه. فالاستقامة ليست مجرد انضباط أخلاقي. قد يكون الإنسان منظماً ولا يكون لله.
وقد يكون شديد الإرادة ولكن إرادته تتحرك بعيداً عنه. الاستقامة القرآنية اتجاه قبل أن
تكون حركة. إليه. أي ليكون الله وجهة الطريق.

ثم: ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾.

وهذا من جمال الدين. يأمرك بالاستقامة، ثم يفتح لك باب الاستغفار في الجملة نفسها. لأن
الله يعلم أن الطريق إليه يسلكه بشر. سيضعفون. وسيتعثرون. وسيخطئون. فلم يجعل الطريق
قائماً على العصمة من الزلل، بل على أن يعود الإنسان كلما زل. الاستقامة لا تعني أنك لن
تعثربداً. بل تعني أن اتجاه قلبك لا يتغير كلما تعثرت قدماك.

الشرك ليس فكرةً في الرأس فقط
 قال تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾
 تأمل كيف انتقلت السورة من قضية التوحيد إلى سلوك اجتماعي مالي. كأن القرآن
 يرفض أن يسمح للعقيدة بأن تبقى معلقة في فضاء التجريد. الإيمان بالله يظهر في الطريقة
 التي تنظر بها إلى المال. والإيمان بالآخرة يظهر فيما تستطيع أن تتخلى عنه الله. المال موضع
 شديد الحساسية في النفس. ولهذا تكشف الزكاة مقدار الحرية الحقيقية التي نالها القلب من
 الأشياء. قد يقول الإنسان: الله أعظم شيء عندي. ثم إذا دُعي إلى إخراج شيء من ماله
 اهتزت هذه الجملة كلها. وهنا تكشف الطاعة ما لا تكشفه الادعاءات. إن العقيدة التي لا
 تنزل إلى اليد، والجيب، والسلوك، والمعاملة، ليست بعدُ قد أخذت مكانها الكامل في
 الإنسان. ولهذا يجمع القرآن مراراً بين حق الله وحق الناس. لأن من عرف الله حقاً لا
 يستطيع أن يعيش منعزلاً عن آلام خلقه.

أَجْرٌ لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِ يَدُ الْقَطْعِ
 قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾
 بعد الوعيد تفتح السورة نافذة. وهذا من إيقاع القرآن العجيب. لا يترك القلب طويلاً تحت
 سحابة الخوف دون أن يشق فيها خيط نور.
 ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

أَجْرٌ لَا يَنْقُطُ. وَلَا يَنْقُصُ. وَلَا يُنْهَى بِهِ عَلَيْهِمْ مَنَّةُ الْأَذَى. إن أكثر ما يحصل عليه الإنسان
 في الدنيا مهدد بالفناء. الصحة تنقص. والمال ينتقل. والوجوه التي نجحها تغيب. والمكانة
 تتبدل. والأشياء التي أمضينا أعمارنا نحرسها تُنتزع من أيدينا واحدة بعد أخرى. ولهذا يحتاج
 القلب إلى شيء غير ممنون. شيء لا تطاله يد الزمن. وهذا هو الفارق بين الاستثمار في
 الدنيا والاستثمار عند الله. كل ما تضعه في الدنيا معرض للخسارة. وكل ما ترسله إلى الله
 تجده.

الأرض التي تمثي عليها ليست شيئاً عادياً
قال تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ
رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

جفأة ترفع السورة عين الإنسان من جدله الصغير إلى الأرض كلها. هذا الإنسان الذي
يصنع لله أنداداً واقف أصلاً فوق أرض خلقها الله. يا للمفارقة. إنه يعصي الله فوق أرض
الله. ويتنفس من هوائه. ويأكل من رزقه. ويستخدم العقل الذي وهبه إياه لكي يجادل في
ربه. ولهذا يأتي السؤال في صيغة تكاد توقظ الإنسان من غرابة ما يفعل: ﴿أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفُرُونَ
بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾؟

أي شيء في الوجود يستحق أن يوضع ندأ للذي أوجد هذا كله؟ إن الشرك يبدو في ضوء
الكون فعلاً غير منطقي قبل أن يكون خطيئة دينية. من ذا الذي يستطيع أن ينافس الله
في الخلق حتى ينافسه في العبادة؟

ثم تحسم الآية القضية: ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ليس رب قبيلة. ولا رب أمة. ولا رب جهة. رب العالمين. كل شيء داخل في ربوبيته.
والإنسان حين يعبد الله لا ينتمي إلى زاوية ضيقة من الكون. إنه ينتسب إلى رب الوجود
كله.

البركة ليست كثرة الشيء بل وجود يد الله فيه
قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً
لِلنَّاسِ فِيهَا﴾

﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾.

لفظة صغيرة، لكن وراءها عالم كامل. فالكون ليس مجرد مادة. وفي الأشياء سر آخر لا
تصفه الأرقام. قد يكون القليل كثير الأثر. وقد يكون الكثير قليل النفع. وقد يكون
الوقت قصيراً ثم يحمل من الإنجاز ما لا تحمله سنوات. وقد يكون المال محدوداً ولكنه يسع
صاحبه وأهله. هذه هي البركة. إنها الزيادة التي لا تفسرها المقاييس الظاهرة وحدها.
ولهذا كان المؤمن لا يسأل الله كثرة الأشياء فقط. بل يسأله البركة فيها. فكم من كثير
استنزف صاحبه. وكم من قليل باركه الله فصار عالماً من الخير.
ثم: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾.

أرزاق الحياة ليست حادثة عشوائية في كون مهمل. هناك تقدير سابق. وهذه الحقيقة لا
تدعو إلى ترك السعي؛ بل تحرره من الهلع. أنت مأمور أن تمشي. لكن لا تحمل على
كتفك وهم أنك أنت الذي تدير خزان الكون. اسعَ بكامل قوتك. ثم نم وقلبك يعلم أن
الرزق في النهاية ليس ابن دهائك وحده، وإنما يجري في عالم قدّر الله فيه الأقوات.

السَّما كانَتْ يَوْمًا دُخانًا
قال تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

إنها واحدة من أوسع صور السورة مهابة. السماء التي تراها اليوم بحكمة البناء، ممتدة في أفق لا تكاد العين تحيط به، تعرضها الآية في طور أول : ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾.

ثم يأتي الأمر الإلهي : ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.
فيرد الكون : ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

وهنا يحدث شيء مدهش. الإنسان الذي كان قبل قليل يقول : ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾
يُعرض أمامه كون كامل يقول : ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

كأن السورة تقيم مقارنة صامتة بين الإنسان والوجود. السماء أطاعت. الأرض أطاعت. النجوم أطاعت. القوانين أطاعت. وأنت؟ إن المعصية في حقيقتها نشاز في سيمفونية كونية هائلة من الطاعة. كل شيء فيك أيضًا مطيع لله من حيث خلقه. قلبك ينبض وفق نظام لم تضعه. خلاياك تعمل دون إذنك. دمك يجري. رثاك تنفسان. جسدك كله يعيش داخل السنن التي أمر الله بها. ثم تأتي الإرادة البشرية الصغيرة فتقول: لا. ومن هنا تبدو العبودية ليست خروجاً على طبيعة الكون، بل عودة إليها. حين تسجد أنت لا تدخل وحدك في العبادة. بل تلتحق بالعالم.

النجوم: جمال وحراسة
 قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ
 الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾
 ﴿وَزَيْنَا﴾.

هناك جمال مقصود في الكون. ليست السماء آلة هائلة فحسب. إن فيها زينة. وهذا يفتح
 باباً عجيباً في معرفة الله. فالذي خلق الإنسان لم يكتف بأَنْ يصنع له عالماً صالحاً للبقاء. بل
 جعله جميلاً أيضاً. كان يمكن للسماء أن تؤدي وظائفها دون كل هذا البهاء. وكان يمكن
 للعالم أن يكون عملياً بلا ورود، ولا ألوان، ولا مشاهد غروب، ولا نجوم. لكن الجمال
 مبثوث في الخلق. وكأن الله لم يرد للإنسان أن يعيش فقط. بل أن يبصر. أن تلمسه
 الأشياء من جهة معناها ومن جهة حسنها.

ثم جمع بين: ﴿بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾.

جمال ووظيفة. زينة وحراسة. وهكذا يأتي الخلق كاملاً من جهات لا نخطط بها.

ثم تختم الآية: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

العزیز الذي لا يعجزه شيء. العليم الذي لا يخفى عليه شيء. فالقوة هنا ليست عمياء. والعلم
 ليس عاجزاً. اجتمعت القدرة الكاملة والمعرفة الكاملة. ومن اجتماعهما خرج هذا العالم.

حين يرفض الإنسان سماع الوحي، يسمع الرعد من جهة أخرى
قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾
بدأت السورة بالبيان. كتاب فُصِّلَتْ آياته. بشيراً ونذيراً. ولكن ماذا إذا أصر الإنسان على
إغلاق كل نافذة؟ هنا يستدعي القرآن التاريخ. عاد وثمرود. والتاريخ في القرآن ليس مقبرة
للأخبار. إنه مختبر للسنن. الأمم تتغير أسماؤها. والقصور تتغير أشكالها. واللغات تتبدل.
لكن قوانين الطغيان قد تعيد نفسها. ولهذا فإن قراءة قصة عاد لا تعني أن تسأل فقط: ماذا
حدث لهم؟
بل: ما الذي فيهم يمكن أن يحدث فينا؟ إن القرآن حين يحدثك عن أمة قديمة لا يسمح
لك أن تختبئ خلف المسافة الزمنية. إنه يضع المرآة أمامك.

الأنبياء يأتون الإنسان من كل جهة
قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾
﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾.

صورة الإحاطة في الدعوة. جاءتهم الرسالة من جهات البيان كلها. لم يتركهم الله لالتباس
عابر. وتعددت طرق الإنذار. لكن القلب الذي لا يريد أن يؤمن يستطيع دائماً أن يصنع
شرطاً جديداً للإيمان.
قالوا: لماذا بشر؟

﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾.

والمشكلة هنا ليست أنهم يبحثون عن برهان. إنهم يحددون الله كيف ينبغي أن يرسل
رسالته. وهذه صورة خفية من صور الاستكبار: أن لا تكتفي بأن تطلب الحق، بل تشترط
على الله الصورة التي يجب أن يأتيك الحق بها. وكثير من اعتراضات البشر على الدين ليست
اعتراضاً على الحقيقة نفسها، بل على أنها لم تأت وفق الأهواء التي رسموها مسبقاً. يريد
الإنسان رباً. لكن وفق شروط الإنسان. ويريد وحيًا. لكن بشرط ألا يهدم شيئاً يحبه.
ويريد ديناً. لكن بشرط ألا يطالبه بأن يتغير. أما العبودية فتبدأ حين يسمح الإنسان لله أن
يكون رباً كما هو، لا كما يريد الإنسان أن يتخيله.

عاد: حين خدعت القوة أصحابها
 قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا
 أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْدِثُونَ﴾
 من أخطر ما تفعله النعمة بالإنسان أن تتحول من دليل على الله إلى حجاب عنه. عاد
 امتلكوا القوة. وكان ينبغي أن تقودهم القوة إلى السؤال: من منحنا إياها؟ لكنهم اتخذوها
 طريقاً في الاتجاه الآخر.
 قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

إنها الجملة التي يقولها الطغيان في كل عصر بلغت الخفاضة. مرة يقولها بالعضلات. ومرة
 بالجوش. ومرة بالاقتصاد. ومرة بالتكنولوجيا. ومرة بالإعلام.
 لكن جوهر العبارة واحد: من يستطيع أن يفعل بنا شيئاً؟ فيأتي الرد القرآني شديد البساطة،
 شديد التدمير لوهم القوة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.
 إن أكثر ما يثير الدهشة في استكبار الإنسان أنه ينسى أصل وجوده. أنت لم تصنع نفسك.
 فكيف استطاعت القوة التي وهبت لك أن تقنعك أنك مستقل عن واهبها؟ إن العبد حين
 يغتر بقوته يشبه مصباحاً صغيراً يتفاخر بالنور وينسى محطة الطاقة التي يصل منها التيار.

الريح التي نزع الوهم قبل أن تنزع الأجساد
قال تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾

قالوا: من أشد منا قوة؟ فأرسل الله ريحاً. وهنا جمال مرعب في المقابلة. لم يحتاج الله إلى
جيش أمام جيشهم. أرسل شيئاً لا يمسكه الإنسان بيده أصلاً. هواء. الشيء الذي تنفسه
وتعيش به يمكن أن يتحول بأمر الله إلى أداة هلاك. وهذا يعلم القلب أن الأشياء ليست
مستقلة في آثارها. الماء حياة، وقد يكون غرقاً. النار دفء، وقد تكون حريقاً. الريح نسمة،
وقد تصبح صرصراً. لأن الكون كله تحت أمر واحد.

وكان العذاب : ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ﴾.

لأن المتكبر لا يؤلمه الألم وحده. بل انكشاف وهمه. لقد بنوا هويتهم على القوة. فجاء
العذاب من الباب ذاته الذي تكبروا منه. وهكذا كثيراً ما يحمل سقوط الإنسان صورة
خطئه.

ثمود: لم يضلوا لغياب الطريق
 قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿
 هذه من أكثر العبارات القرآنية كشفًا لطبيعة الضلال: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾.

لم يقل: لم يجدوا الهدى.
 بل: استحبوا العمى. والاستجاب ميل القلب واختياره. إن أخطر أنواع الضلال ذلك الذي يأتي بعد المعرفة. حين يصبح الهوى أقوى من البرهان. وحين يرى الإنسان الطريق ثم يختار الطريق الآخر لأنه أكثر ملاءمة لشهوته أو كبريائه. لذلك لا تكفي المعرفة وحدها لصالح الإنسان. كم من إنسان يعرف أن شيئًا يؤذيه ثم يفعل. ويعرف أن معصية تهدمه ثم يعود إليها. ويعرف أن حقًا واضح ثم يرفضه. المشكلة ليست دائمًا في المصباح. أحيانًا تكون في العين التي تفضل أن تغمض نفسها. ثم في قلب العاصفة تأتي جملة قصيرة: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وما أطمأن القلب إلى هذه السنة. حين يعم الخراب لا تضيع عند الله أسماء المؤمنين. الله يعرفهم. ويميزهم. ويخرجهم من بين الركام.

اليوم الذي يخسر فيه الإنسان حقّه في احتكار الشهادة عن نفسه قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾

هنا تدخل السورة مشهداً من أشد مشاهد القيامة رهبة. في الدنيا كان الإنسان هو المتحدث الرسمي باسم نفسه. يبرر. ينكر. يزين. يعيد صياغة القصة. يحذف منها ما يشاء. ويضيف ما يشاء. أما هناك، فيفقد السيطرة على السرد. سمعه يشهد. بصره يشهد. جلده يشهد. الأدوات التي استعملها في الخطيئة تتحول إلى شهود عليها. يا للهول. هذا الجسد الذي ظن الإنسان أنه ملك خاص له، يتبين يوم القيامة أنه كان أميناً يسجل تاريخ صاحبه. العين تعرف أين ذهبت. والأذن تعرف ماذا استقبلت. والجلد يعرف ما لامس. ولا يضيع شيء. وهنا تتغير علاقتك بجسدك إذا أدركت هذه الحقيقة. عينك ليست نافذة محايدة. وأذنك ليست جهاز استقبال بريئاً من المسؤولية. وجوارحك كلها ستدخل معك قاعة المحكمة. إن في داخل الإنسان أرسيفاً حياً لا يملكه هو.

الصدمة: «لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟»
 قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِلْجُلُودِ هُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾
 يا لعجب السؤال.

﴿لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟﴾

كأن الإنسان يشعر بخيانة من جسده. كيف تشهد علي وأنت مني؟
 لكن الجلود تجيب: ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.
 وفي هذه الجملة تلتقي أطراف السورة. الكون كان مطيعاً.
 والسماء والأرض قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

وهنا الجلود تنطق بأمر الله. كل شيء مستجيب. ويبقى الإنسان وحده الذي أوتي مساحة الاختيار فاستعملها ليعاند. ثم تأتي الحجة البسيطة الكبرى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.
 من أنشأ اللسان أول مرة قادر أن ينطق الجلد. ومن خلق الإنسان من عدم لا يعجزه أن يعيد جسده شاهداً عليه.

الخطيئة التي وقعت لأن صاحبها أساء الظن بالله
قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدَأَكُمُ فَاصْبِرُوا مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴿٢﴾

هنا تكشف السورة جذراً عميقاً للمعصية: تصور الإنسان عن الله. لم تكن المشكلة سلوكاً منفصلاً فحسب.

كان وراء السلوك ظن فاسد: ﴿ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وهذا يفتح باباً هائلاً في تربية النفس. إن تصحيح معرفتك بالله يصحح حياتك. إذا امتلأ قلبك بعلمه، تغيرت خلواتك. إذا امتلأ قلبك برحمته، تغير رجائك. إذا امتلأ قلبك بقدرته، تغير خوفك. إذا امتلأ قلبك بحكمته، تغير اعتراضك على الأقدار. ولهذا قالت الآية: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدَأَكُمُ﴾. ظن واحد بالله قد يصنع مصير إنسان. فالعقيدة ليست فصلاً ذهنياً في كتاب. إنها العدسة التي ترى بها العالم كله.

حين يصبح جليس الإنسان مهندس هلاكه
 قال تعالى: ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي
 أُمِّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾
 من أخطر ما يفعله الرفيق السيئ أنه لا يقول لك دائماً: افعل الشر. بل يجعلك ترى الشر
 جميلاً.

﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ﴾.

وهنا الفرق. المعركة الكبرى ليست حول الفعل فقط، بل حول اسمه وصورته في النفس.
 حين يسمى الجبن حكمة. والخيانة ذكاء. والفساد مصلحة. والفجور حرية. والكبر كرامة.
 فإن التزيين يكون قد أدى وظيفته. إن الشيطان لا يحتاج أن يغير حقيقة الشيء. يكفي أن
 يغير صورته في عينك. ومن هنا كانت الصحبة من أخطر العوامل في تشكيل البصيرة.
 فالإنسان لا يستعير من أصحابه أفكارهم فقط. بل يستعير تدريجياً معاييرهم في رؤية الأشياء.

حين يخاف الباطل من سماع القرآن
 قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾
 هذه الآية تكشف اعترافاً ضمنياً بقوة القرآن. لو كانوا يرونه كلاماً لا أثر له، فلماذا يمنعون
 الناس من سماعه؟

﴿لَا تَسْمَعُوا﴾.

ثم: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾.
 اصنعوا ضجيجاً، شوشوا. لا تسمعوا للصوت أن يصل واضحاً. هذه استراتيجية قديمة جداً.
 حين يعجز الباطل عن إسكات الحقيقة بالحجة يحاول إسكاتها بالضوضاء. فالضجيج أحياناً
 ليس دليل قوة. بل دليل خوف. والقرآن لا يحتاج دائماً إلى أن تدافع عنه بكلمات كثيرة.
 في أحيان كثيرة يكفي أن تتيح له أن يُسمع. فله قدرة عجيبة على النفاذ حين تتوقف
 الحواجز المصطنعة. ومن أعمق المعارك في هذا العصر معركة الانتباه. كم من إنسان لا
 يرفض القرآن صراحة، لكنه يعيش داخل ضجيج متصل لا يترك في روحه فراغاً يسمعه
 فيه. شاشات. أخبار. رسائل. مقاطع. أصوات. حتى صار الصمت نفسه حدثاً نادراً.
 وربما كان من أعظم أبواب العودة إلى القرآن أن تستعيد له أولاً حقه في السكون حوله.

أشد الانتقام أن يرى الإنسان من أضلّه
 قال تعالى: ﴿فَلَنَذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
 ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ
 الْأَسْفَلِينَ ﴿١١﴾

في الدنيا كان المضل محبوباً. يتبعونه. ويصفقون له. ويأخذون عنه. أما يوم القيامة فتتغير
 العلاقة.

﴿أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾.

نريد أن نراهما. لماذا؟

﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾.

يا لها من نهاية مروعة للصحبة المبنية على الباطل. من رفعته اليوم فوق رأسك لأنه يزين لك
 المعصية قد تمتنى غداً أن تضعه تحت قدميك. ولهذا فإن من أعظم الأسئلة التي ينبغي أن
 يسألها الإنسان عن كل صوت يتبعه: إلى أين يقودني؟ ليس المهم أن يعجبني الآن. بل أين
 سنقف معاً في النهاية؟

أربع كلمات تغيّر هيئة الموت
قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾
بعد كل هذا الرعب، تفتح السورة باباً من نور يكاد القلب يقف أمامه طويلاً.
﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

ما أقصر العبارة. وما أطول الطريق الذي تحتويه.
قالوا: ربنا الله. ثم عاشوا على مقتضى ما قالوا. فلبست القيمة في الجملة إذا بقيت في الفهم. بل
حين تتحول إلى سيرة. ثم استقاموا. في الصلاة. في المال. في السر. في العلن. في الخوف. في
الرخاء. في الخلوة. وفي اللحظة التي تميل فيها الدنيا كلها عن الطريق. ثم تأتي المكافأة في
أكثر اللحظات التي يحتاج الإنسان فيها إلى الطمأنينة. حين تنكشف له الآخرة وتراجع
الدنيا من خلفه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.
وما أول ما تقوله الملائكة؟

﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾.

الخوف مما سيأتي.

﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

الحزن على ما مضى. إنهما السوطان اللذان يرهقان الإنسان طوال حياته: مستقبل يخشاه.
وماضٍ يحزن عليه. فتأتي الملائكة عند نهاية الرحلة لتطفئ النارين معاً: لا تخافوا مما أمامكم.
ولا تحزنوا على ما خلفكم.
ثم: ﴿وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ﴾.
انتهى زمن الصبر. وجاء زمن الوصول.

أصحابٌ لا يفارقونك عند القبر
 قال تعالى : ﴿لَنَحْنُ أَوْلَىٰكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ نَزْلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ
 من أشد حقائق الموت على النفس أن أكثر الذين رافقوك سيقفون عند حد. يحملونك. يدفنونك. ثم يرجعون. لكن المؤمن يسمع من عالم آخر : ﴿لَنَحْنُ أَوْلَىٰكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.
 إنها صلبة لا يقطعها القبر.
 ثم يأتي وصف الجنة : ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾.
 لا قائمة محدودة. ولا خيارات قليلة. كل ما تشتهي النفس.
 ثم أوسع : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾.
 وكل ذلك : ﴿نَزْلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾.
 حتى الجنة تُقدِّم إليك مرتبطة بأسماء الله.
 بدأت السورة : ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.
 وهنا : ﴿نَزْلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾.
 الرحمة في أول الطريق. والرحمة عند منتهاه. وما بينهما عبد يتعثّر، ويستغفر، ويقوم، ويمشي إلى الله.

أجمل مهنة على الأرض
قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
سؤال لا ينتظر جواباً : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ ؟
إن أجمل الكلمات ليست أكثرها زخرفة. بل أكثرها دلالة على الله. والدعوة هنا لم تترك وحدها.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

لأن الكلمة حين لا يصدقها صاحبها تفقد شيئاً من نورها. إن الداعية الحقيقي ليس لساناً يمشي بين الناس. بل حياة تشرح ما يقول.
ثم : ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .
لم يقل: أنا فوق الناس.
ولا: أنا صاحب طبقة خاصة.
بل: أنا واحد من المسلمين. إن أعظم الدعاة أشدهم شعوراً بالعبودية. كلما دل الناس على الله ازداد شعوره بأنه هو نفسه فقير إلى الله.

انتصارٌ لا يحدث بإسقاط الخصم بل بتحويله
قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

ليس المطلوب فقط أن تدفع السيئة بالحسنة.

بل: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

أي أن ترتقي داخل الحسن نفسه إلى أعلى درجاته. هذه تربية شديدة المشقة على النفس.
لأن النفس حين تؤذى تريد أن تستعيد توازنها بالانتقام. لكن القرآن يريد لك نصراً أعظم.
ليس أن تقهر خصمك. بل أن تهزم العداوة ذاتها.

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

تأمل التحول. لم يقل: يسكت. بل قد يتحول إلى ولي حميم. وهذه من معجزات الأخلاق.
أن تدخل إلى علاقة ملتهبة فلا تصب فيها وقوداً جديداً. أن تكون أنت النقطة التي تنتهي
عندها سلسلة الشر. أهانك فلا تهنه. أساء فلا تتحول إلى صورة أخرى منه. لأن أعظم
انتصار أخلاقي هو ألا يسمح لك الشر الذي في غيرك أن يصنع شراً يشبه داخلك.

لا يبلغ هذه القمة إلا أصحاب النفوس الكبيرة
قال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾
القرآن واقعي. لا يخبرك أن دفع السيئة بالحسنى أمر سهل.
بل يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾.

لأنك ستحتاج أن تنتصر أولاً على شيء في داخلك قبل أن تنتصر على خصمك. الغضب.
الكبرياء. الرغبة في الرد. حب الانتصار للنفس. ثم وصف القادر على هذا بأنه: ﴿ذُو
حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

نحن نسمي محظوظاً من كثرت أمواله أو فرصه. أما القرآن فيعيد تعريف الحظ. من
استطاع أن يحكم غضبه، ورد السيئة بالحسنى، ويحفظ قلبه من سموم الخصومة، فهذا هو
صاحب الحظ العظيم. إن الثروة الحقيقية قد تكون خُلُقاً.

حين يحاول الشيطان أن يسرق لحظة صفائك
قال تعالى : ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
بعد الأمر بدفع السيئة بالحسنى مباشرة يأتي ذكر الشيطان. وهذا الترتيب بالغ الدقة. لأن
لحظات انحصومة من أحب الأبواب إلى الشيطان. كلمة واحدة عند الغضب قد تهدم
سنوات. قرار لحظي قد يفتح عداوة طويلة.
ولهذا قال : ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.
في المعارك الداخلية الكبرى لا يكفي أن تعتمد على قوة شخصيتك. الجأ إلى الله. وهذه
إحدى حقائق العبودية: أن تعرف اللحظة التي لا يكفيك فيها نفسك.

لا تسجد للآية وتنسى صانعها
 قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ
 وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾
 الإنسان مفتون بالعظيم. وحين يرى شيئاً باهراً قد يقف عنده وينسى من أوجده.
 لذلك يقطع القرآن الطريق: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾.
 هما عظيمان، نعم. ولكن عظمتها دليل وليست غاية. آية وليستا إلهاً. إن وظيفة الكون
 أن يقودك إلى الله، لا أن يحتجزك عنده. وهذا ميزان يمتد إلى أشياء كثيرة. قد يفتن
 الإنسان بالعقل وينسى واهب العقل. أو بالجمال وينسى خالق الجمال. أو بالقوة وينسى
 مصدر القوة. أو بالأسباب وينسى مسببها. التوحيد أن تعبر من الأشياء إلى الله. لا أن
 تتوقف عندها.

هناك من لا يملُّ العبادة
قال تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾
إن استكبر بعض البشر عن السجود، فلن ينقص ملك الله شيء.. هناك خلق يسبحون ليلاً ونهاراً.

﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾.

وهذه الجملة تضعك أمام سؤال موجه: لماذا نسأم نحن؟ لماذا تتحول العبادة أحياناً إلى حمل ثقيل؟ الجواب في الأغلب ليس في العبادة، بل في القلب. حين يعرف القلب من يعبد، يتغير طعم العبادة. فالممل كثيراً ما يكون ابن الغفلة.

الأرض الميتة تعرف سرَّ القيامة
قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ
الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
ما أجمل كلمة: ﴿خَاشِعَةً﴾.

لم يقل يابسة فقط. فالخشوع يرسم هيئة الأرض كأنها ساكنة مطرقة الرأس. ثم ينزل الماء.
﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

الحياة تدخل فيها فجأة. وهذا المشهد الذي يتكرر أمام البشر كل عام هو برهان القيامة
موضوع تحت أقدامهم. إن الذي ترى فعله الآن لا تستبعد فعله غداً. ومن هنا فإن الكون
يعيد على الإنسان درس البعث باستمرار. كل ربيع حجة. وكل بذرة تنشق حجة. وكل أرض
تعود خضراء بعد موتها حجة. وكل مدهش أن أعظم الأدلة قد تضيع من الإنسان بسبب
كثرة تكرارها.

لا يخفي الذين يحرفون الطريق
 قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي
 آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
 هناك جملة يظن الإنسان بها أحياناً أنه استطاع أن يفلت من أعين الناس.
 لكن: ﴿لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾.

وما أعظم الفرق بين أن تحتفي عن الناس وأن تحتفي عن الله. الأول ممكن. والثاني
 مستحيل. ثم تضع الآية المصيرين جنباً إلى جنب: إنسان يلقي في النار. وإنسان يأتي آمناً.
 الأمن هنا يصبح أعظم نعيم. وهذا يكشف شيئاً عن حاجتنا العميقة. إن الإنسان في نهاية
 المطاف لا يريد لذة فقط. إنه يريد أن يأمن. أن يصل إلى مكان لا ينتظر فيه خبراً مفزعاً.
 ولا مرضاً. ولا موتاً. ولا فقداً. ولا انهياراً. وهذا هو أمن الآخرة.

كُتِبَ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَاطِلُ أَنْ يَتَسَلَّلَ إِلَى بَنَائِهِ
 قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۖ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ
 بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾
 ﴿لِكِتَابٍ عَزِيزٍ﴾.

عزیز. منیع. لیس کتاباً یعیش مستمداً قیمته من تصفیق الناس. وقد حورب. وسُخِرَ منه.
 وحاول أعداؤه إسكات صوته. ومرت عليه القرون. وبقي. لأن عزته ليست من البشر.
 ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾.

ثم يعود القرآن في ختام الوصف إلى أصله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.
 بدأت السورة بتنزيل من الرحمن الرحيم. وهنا تنزيل من حكيم حميد. رحمة. وحكمة. وحمد.
 كأن أسماء المنزل تشرح لك صفات الكتاب المنزل.

الطريق الذي سار فيه الرسول سار فيه الرسل
قال تعالى : ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ
أَلِيمٍ﴾

في هذه الآية مواساة لكل صاحب حق استوحش من تكذيب الناس. لست أول من قيل
له هذا. الأنبياء مروا من هنا. السخرية قديمة. والالتهام قديم. والاستتجار قديم. ولهذا فإن
معرفة تاريخ الحق تعطي صاحبه قدرة على احتمال لحظته. أحياناً يتألم الإنسان لأنه يظن
أن ما وقع عليه حادثة استثنائية. لكن حين يعرف أنه يسير في طريق سار فيه الصالحون
قبله، يتحول الألم من علامة فشل إلى جزء مفهوم من الطريق.

المشكلة ليست في لغة الكتاب بل في رغبة القلب
قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ الْعَجَمِيُّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ
بَعِيدٍ﴾

ها هنا يكشف القرآن طبيعة الاعتراض الذي لا يريد جواباً. لو جاء بلسان أعجمي
لاعترضوا. وحين جاء عربياً اعترضوا من جهة أخرى. فليست المشكلة دائماً في صيغة
البرهان. أحياناً يكون الإنسان قد قرر الرفض أولاً، ثم بدأ يبحث عن الحجج لاحقاً.
أما المؤمنون: ﴿هُدًى وَشِفَاءٌ﴾.

والعبارتان عجيبتان. الهدى للطريق. والشفاء للداخل. فالقرآن يصلح وجهتك ويصلح
جراحك. يعلمك أين تمشي. ويعالج ما أصابك أثناء المشي.
ثم يصور المعرضين: ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.
الصوت موجود. لكن المسافة النفسية هائلة. وهذا من أجمل تصوير القرآن لحالة من يسمع
الوحي وقلبه بعيد. قد تكون المصحف بين يديه. والآية أمام عينه. لكن بينه وبين المعنى
أميال.

الاختلاف لا يعني أن الله فقد السيطرة على المشهد
قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾
الاختلاف حول الحق ليس جديداً. حتى كتاب موسى وقع فيه الاختلاف. وهذا يمنع
المؤمن من صدمة ساذجة حين يرى الناس يتنازعون حول الوحي. وجود الاختلاف لا
يعني غموض الحقيقة بالضرورة. فقد يكون النص واضحاً، لكن النفوس مختلفة، والأهواء
مختلفة. والمصالح مختلفة. ولهذا لا ينبغي أن نقيس وضوح الحق بعدد الموافقين عليه.

في النهاية: أنت تعمل لنفسك
قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾
من أنقى قواعد المسؤولية. حين تطيع الله لا تضيف إلى ملكه شيئاً. أنت تنقذ نفسك.
وحين تعصيه لا تنقص من سلطانه شيئاً. أنت تجرح نفسك.

﴿فَلِنَفْسِهِ﴾.

﴿فَعَلَيْهَا﴾.

إن الطاعة ليست خدمة نقدمها لله. بل رحمة يقدمها الله لنا حين يدلنا عليها. وهذا يقلب
شعور الإنسان بالتكليف كله. أنت المنتفع. أنت المحتاج. أنت الذي تعود إليه ثمرة السجدة
والصدقة والاستغفار والعفة والصبر.
ثم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.
لا يضيع عنده خير. ولا يحمل أحداً ذنب غيره. ولا ينقص حسنة. ولا يزيد سيئة بغير
حق. إن المصير قائم على عدل مطلق.

علم الساعة عند من يحمل سر كل ثمرة
 قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا
 تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ إِيَنَّ شُرَكَايَ قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْدٍ﴾
 تجمع الآية بين أضخم سر في المستقبل وبين أصغر التفاصيل. الساعة. ثم ثمرة صغيرة تخرج
 من غلافها. وجنين في رحم. كلها داخل علم واحد. وهنا تشعر بسعة العلم الإلهي. لا تشغله
 الكليات عن الجزئيات. يعلم مصير الكون. ويعلم الثمرة قبل أن تظهر. ويعلم ما في الرحم.
 ويعلم خوفك الذي لم تخبر به أحداً. وهذه المعرفة ليست معلومة عقدية باردة. إنها
 سكية. أن تكون مجهولاً عند الناس لا يعني أنك مجهول عند الله.

الآلهة التي ملأت الحياة تختفي عند الحقيقة
قال تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾
﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾.

اختفى. ضاع. كل ما علقوا به قلوبهم لا يجدونه ساعة الحاجة. وهذه مأساة التعلق بغير الله. قد يمنحك الشيء شعوراً بالأمان زمنًا. ثم حين تأتي اللحظة الكبرى تكتشف أنه لا يملك لك شيئاً. إن أعظم خيبة أن تقضي عمرك مستنداً إلى جدار ثم تكتشف عند السقوط أنه كان مرسوماً فقط.

الإنسان الذي لا يملُّ الطلب ثم ينهار عند المنع
قال تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّلُ بِقَنُوطٍ﴾
يا لدقة التشريح. حين يريد الخير لا يملُّ من الطلب. المزيد. والمزيد. والمزيد.
لكن إذا مسه الشر: ﴿فَيَتَوْسَّلُ بِقَنُوطٍ﴾.

انتقال حاد من التعلق إلى الانهيار. وهذه النفس حين لا يربحها الإيمان تصبح عبدة للحال.
إن أقبلت الدنيا اطمأنت. وإن أدبرت انهارت. أما الإيمان فيني داخل الإنسان مركزاً
أثبت من الظروف. الله موجود في الرخاء. وموجود في البلاء. وحكمته لا نتوقف حين
نتوقف الأشياء التي نحبها.

النعمة التي تتحول في لحظة إلى استحقاق متوهم
قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

﴿هَذَا لِي﴾.

ثلاث كلمات تختصر غرور الإنسان بالنعمة. كان منذ قليل في ضراء. ثم جاء الفرج. وبدل أن يقول: هذا من الله، قال: هذا لي. كأن النعمة حق طبيعي. وهذه إحدى أسرع التحولات التي تحدث في النفس. نصرخ إلى الله حين نفتقد الشيء. ثم حين يصل ننسى المسافة التي قطعها الدعاء. ولهذا كان الشكر ذاكرةً إيمانية. أن نتذكر مصدر النعمة بعد أن تألف وجودها.

إذا أعرض الإنسان ابتعد بجانبه
قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ
عَرِضٍ﴾
الصورة تكاد تُرى.

﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾.

ابتعد متكبراً.

ثم إذا مسه الشر: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِضٍ﴾.
يا للعجب. حين كان قادراً نسي. وحين ضاقت قدرته تذكر. وهذا يكشف وظيفة البلاء
أحياناً. ليس كل ألم حرماناً. قد يكون الألم يداً تهدم الجدار الذي بناه الغرور بينك وبين
الله. كم من إنسان لم يعرف حرارة الدعاء إلا حين أغلقت الأرض أبوابها.

ماذا لو كان هذا القرآن فعلاً من عند الله؟
قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ
بَعِيدٍ﴾

إنه سؤال يهز الإنسان من الداخل. افترض للحظة، ماذا لو كان هذا الكلام من عند الله
حقاً؟ ما حجم الخسارة إذا قضيت حياتك معرضاً عنه؟ إن القرآن هنا لا يطلب من المعاند
إلا لحظة صدق، أن يخرج قليلاً من يقينه المتصلب بموقفه.
ويسأل: ماذا لو كنت مخطئاً؟ إن أحد أخطر أشكال الكبر أن يفقد الإنسان القدرة على
افتراض خطئه.

سيظل الكون يقدم شهادته حتى يتبين الحق
قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ
بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

هذه واحدة من الآيات التي تفتح الإنسان على العالم كله.

﴿فِي الْآفَاقِ﴾.

انظر بعيداً. إلى السماء. إلى الأرض. إلى التاريخ. إلى قوانين الوجود.
ثم: ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾.

عد إلى الداخل. الجسد. الوعي. الذاكرة. الإرادة. الحب. الخوف. الموت. أنت محاصر
بالآيات من جهتين: خارجك. وداخلك. كلما هربت إلى الأفق وجدت الله يدلك عليه.
وكما رجعت إلى نفسك وجدت آثار صنعه. إن الإنسان يعيش داخل برهان. لكن كثرة
الآيات قد تجعلنا نألفها حتى لا نراها. والتدبير هو أن تستعيد الدهشة. أن ترى المألوف
وكأنك تراه أول مرة. يدك. عينك. نبضك. السماء. المطر. الليل. كلها أشياء اعتدت
عليها حتى فقدت صوتها. والقرآن يعيد إليها الكلام.

المشكلة الأخيرة: إنهم في شك من اللقاء
قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾
وهكذا تنتهي السورة. لم تنتهِ بالحديث عن السماء. ولا عن عاد. ولا عن ثمود. ولا عن
الجوارح. ولا عن النجوم.

بل عن أصل الأزمة: ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾.
إن الطريقة التي يعيش بها الإنسان مرتبطة بالطريقة التي يتصور بها اللقاء. إذا غاب اللقاء
من الوعي، تضخم العاجل. وصارت الدنيا هي كل شيء. وأصبح فقدوها كارثة نهائية.
والانتصار فيها نصراً نهائياً. واللذة فيها غاية نهائية. لكن إذا عاد اللقاء إلى القلب، عادت
الأشياء إلى أحجامها. فالظالم سيقف. والمظلوم سيقف. والغني سيقف. والفقير سيقف.
والذي مدحه الناس سيقف. والذي نسوه سيقف. كل الطرق تنتهي هناك، ثم تأتي آخر
كلمة في السورة كأنها تطبق السماء والأرض على الإنسان: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.
بدأت السورة بكتاب نازل من الله. وانتهت بعالم لا يخرج شيء فيه عن إحاطة الله. وبين
البداية والنهاية كان الإنسان يتحرك. يؤمن أو يعرض. يستقيم أو يخرف. يسجد أو يستكبر.
ولكنه في الحالتين لا يستطيع أن يغادر ملك الله.
الخلاصة

حين يصبح العالم كتاباً مفتوحاً بعد سورة فصلت لا تعود السماء مجرد سماء. ولا الأرض
مجرد تراب. ولا جلدك مجرد غلاف لجسدك. ولا أذنك جهازاً صغيراً في رأسك. ولا
الليل وقتاً يمر. ولا النهار ضوءاً يتكرر. لقد أعادت السورة تعريف الأشياء. كل شيء صار
آية. وكل شيء صار يحمل شهادة.

الكون يقول: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.
والجلد يقول: ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهَ﴾.

والأرض اليبسة تقول في خضرتها: إن الذي أحياني لمحيي الموتى.
والقرآن يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾.
أما الإنسان فهو الكائن الذي يقف في منتصف هذا العالم الناطق، ثم يطلب إليه شيء
واحد: أن يسمع. كانت مأساة المكذبين في أول السورة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.
وكانوا يقولون: ﴿فِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾.

وكل الرحلة التي جاءت بعد ذلك كأنها محاولة كبرى لإزالة هذا الوقر. إن لم تسمع القرآن، فاسمع التاريخ. وإن لم تسمع التاريخ، فانظر إلى الكون. وإن لم تنظر إلى الكون، فانظر إلى نفسك. وإن أنكرت نفسك، فسيأتي يوم تنطق فيه نفسك نفسها ضدك. لا مهرب من الشهادة. ولهذا كان النجاة في أبسط جملة وأثقلها : ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ .
أن تعرف الله. ثم ألا تجعل معرفتك به فكرة تسكن رأسك وحده. بل طريقاً تمشي به. فإذا فعلت، لن يكون الموت انطفاءً مفزعاً في آخر الطريق. ستفتح في اللحظة التي يغلق فيها الناس أبواب الدنيا عليك أبواب من عالم آخر. وتنزل الملائكة. وتأتي الكلمات التي انتظرها قلب الإنسان منذ أول خوف عرفه في حياته : ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ .
هناك فقط يعرف الإنسان أن كل استقامة قاوم بها ميله لم تذهب. وأن كل معصية تركها وهو قادر عليها كانت تُبنى بها خطوة في طريق الجنة. وأن كل سجدة خفية كانت تهیی له لقاء لا خوف بعده. وأن القرآن الذي كان بين يديه في الدنيا لم يكن مجرد كتاب يخبره عن الطريق. كان رحمةً نازلة من السماء لتقوده إلى البيت.
وهكذا تبدأ سورة فصلت : ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .
وكان السر كله كان مكتوباً منذ البداية. هذه الرحلة كلها... كانت رحمة.

البنية الباطنة لسورة فَصِّلَتْ

حين تكتشف أن السورة كلها حوارٌ بين البيان والإعراض
ثمة سور تقرأها فتشعر أنك تتبع أحداثاً، وثمة سور تقرأها فتشعر أنك تتلقى أحكاماً. أما
سورة فصلت، ففيها إحساس آخر: كأنك واقف أمام صراع هائل بين صوتين. صوت يريد
أن يكشف. وصوت يريد أن يحجب.
الوحي يقول: ﴿كَأَبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾.
وهم يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾.

الوحي يفتح. وهم يغلقون. الوحي يبين. وهم يعرضون. الوحي يجعل الكون كله آية. وهم
يحاولون أن يجعلوا الآية صمتاً. ومن هنا يمكن أن تقرأ السورة كلها باعتبارها مواجهة بين
التفصيل والتغطية. فالقرآن مفصل. والقلب في أكِنَّة. والآيات ظاهرة. والآذان فيها وقر.
والكون يتكلم. والإنسان يختار ألا يسمع. وهذا من أعمق التناقضات التي ترسمها السورة:
ليس الإشكال أن الله أخفى الحقيقة، بل أن الإنسان قد يحتجب منها. وهذا يبدل طريقة
فهم الضلال نفسها. فنحن نتصور أحياناً أن الضال إنسان يقف في صحراء لا طريق فيها.
لكن سورة فصلت تعرض نموذجاً آخر: إنسان أمام طريق واضح، ولكنه يغمض عينيه.
ولهذا قالت في ثمود: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾.

والتعبير مذهل. لم يكن العمى قدراً وقع عليهم دون إرادة. لقد استحبوه. أي أن القلب قد
يصل إلى مرحلة يجد فيها الظلام أريح من النور. لماذا؟ لأن النور يكشف. ومن طبيعة
الحقيقة أنها حين تدخل حياتك لا تكتفي بأن تضيف إلى معلوماتك معلومة جديدة؛ بل
تبدأ بالمطالبة بإعادة ترتيب أشياء كثيرة. إذا عرفت أن الله يراك، فثمة خلوات ينبغي أن
تتغير. إذا عرفت أن الآخرة حق، فثمة أولويات ينبغي أن تتغير. إذا عرفت أن المال
أمانة، فثمة يد ينبغي أن تتفتح. إذا عرفت أن الوحي حق، فثمة كبرياء ينبغي أن تتكسر.
ولهذا قد يكون العمى محبوباً أحياناً لا لأن الإنسان يحب الجهل من حيث هو جهل،
ولكن لأنه يحب الراحة التي يمنحها إيها الجهل. إن الحقيقة مكلفة. والضوء له ثمن. ولهذا
كان القرآن هدىً، ولكن ليس كل من اقترب من الهدى اهتدى؛ لأن الهدى يحتاج قلباً
مستعداً لدفع ثمن الرؤية.

المقام الأول سورة فَصِّلَتْ وسؤال: لماذا لا تكفي الأدلة؟ من أكثر الأسئلة إلحاحاً في التجربة الدينية: إذا كانت دلائل الله بهذه الكثرة، فلماذا لا يؤمن الجميع؟ والسورة تكاد تجيب عن هذا السؤال من بدايتها إلى نهايتها. الأرض دليل. السماء دليل. الليل دليل. النهار دليل. الشمس دليل. القمر دليل. المطر دليل. إحياء الأرض دليل. التاريخ دليل. النفس دليل. والقرآن نفسه دليل.

ثم في النهاية: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾.

إنك أمام فيض من الدلالة. ومع ذلك هناك من يكفر. لماذا؟ لأن الإنسان ليس عقلاً فقط. لو كان الإنسان عقلاً مجرداً، لكان الدليل الصحيح كافياً دائماً لإحداث النتيجة الصحيحة. لكنه رغبة أيضاً. وكبرياء. ومصلحة. وعادة. وخوف من التغيير. وتعلق بما ألف. ورغبة في أن يظل سيد نفسه. ولهذا لا يكون النزاع حول الله في كل الأحيان نزاعاً معرفياً صرفاً. قد يعرف الإنسان من الحق ما يكفي، ولكنه لا يريد تبعات الحق. وهنا ندرك لماذا يجمع القرآن باستمرار بين المعرفة والتزكية. فالقلب المريض يستطيع أن يستخدم الذكاء نفسه لصناعة الحجج التي تحمي مرضه. ويمكن للعقل أن يصبح محامياً بارعاً عن الهوى.

وهذه من أخطر صور الضلال: أن يكون الإنسان شديد الذكاء، لكنه يستخدم ذكاءه لا للبحث عن الحقيقة، بل للهروب منها. فالمشكلة حينئذ ليست ضعف آلة التفكير. بل فساد الاتجاه. المقام الثاني «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ»: حين يتحول القلب إلى حصن في هذه العبارة شيء يتجاوز مجرد الكفر: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾.

الكن هو الغطاء. والقلب هنا ليس فارغاً. إنه مغطى. وهذا الفارق بالغ الدلالة. لأن الإنسان لا يبدأ حياته غالباً بقلب مغلق. بل يصنع الإغلاق بالتدريج. معصية لا يتوب منها. ثم تبرير. ثم تكرار. ثم نفور من كل ما يذكّره بخطئه. ثم كراهية للنصيحة. ثم البحث عن أصوات تقول له إن ما يفعله طبيعي. ثم يتحول الخطأ من فعل ينجل منه إلى هوية يدافع عنها. وهكذا يُبنى الكن. طبقة فوق طبقة. حتى يصبح الضوء حين يصل مؤلماً. ولهذا فإن أخطر ما في الذنب ليس اللذة العابرة التي صاحبت فعله. بل ما يتركه في هندسة القلب. قد تتغير بعده حساسية الإنسان. كان يتألم من المعصية، ثم ألفها. كان يفرح بالطاعة، ثم ثقلت عليه. كان يسمع الآية فيرتجف، ثم صارت تمر عليه بلا أثر.

وهذا هو التحول المرعب: ليس أن يتوقف القرآن عن الكلام. بل أن نتوقف أنت عن السماع. المقام الثالث الكون في سورة فصلت ليس خلفية للإنسان في كثير من تصوراتنا الحديثة تتعامل مع الكون كأنه مجرد مسرح كبير، والإنسان هو الشخصية الوحيدة الحقيقية داخله. النجوم خلفية. الأرض مورد. المطر ظاهرة. الشمس طاقة. والليل نتيجة دوران. لكن القرآن يغير زاوية النظر. الكون في سورة فصلت طرف في الشهادة. الأرض لها قصة. والسماء لها أمر. والليل والنهار آيتان. والشمس والقمر آيتان. والأرض الخاشعة تهتز وتحيا. والمشهد الكوني كله مرتبط بالله مباشرة.

وحين قيل للسماء والأرض: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾
 قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

هذه الآية لا تمنحك معلومة عن بدء الخلق فحسب. إنها تصنع وعياً كونياً. أنت تعيش داخل عالم مطيع. أنت لست بين أشياء مستقلة تتحرك بلا معنى. بل داخل مملكة. وحين تصلي الفجر والسماء تفتح قليلاً قليلاً، فأنت لا تؤدي طقساً خاصاً بك منفصلاً عن الوجود. بل تدخل في انسجام مع عالم كله جارٍ بأمر الله. وحين تسجد، لا تكون السجدة حركة فردية غريبة عن الكون. إنها أكثر الحركات انسجاماً معه. المتمرد الحقيقي على نظام الوجود ليس الساجد. بل المستكبر. ولهذا جاء بعد ذكر الشمس والقمر: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾.

كأن القرآن يقول: لا تقع في أسر الجمال. اعب منه إلى الجميل الذي أوجده. لا تفتنك ضخامة المخلوق عن عظمة الخالق. لا تجعل الآية حجاباً عن صاحب الآية. المقام الرابع لماذا اختارت السورة «السمع والبصر والجلود»؟

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾.

إن مشهد شهادة الجوارح لا يروع الإنسان لأنه مشهد خارق فقط. بل لأنه يقلب مفهوم الخصوصية كله. ما أظنك تملكه أكثر من جسدك؟ البيت قد يكون مستأجراً. والمال ينتقل. والسيارة تباع. والملابس تستبدل. أما العين التي تنظر بها؟ هذه أنت. والجلد الذي يحيط بك؟ أقرب شيء إليك. ومع ذلك تكشف القيامة أن حتى هذه المنطقة الحميمة جداً ليست خارجة عن سلطان الله. إن جسدك ليس شريكاً لك في التستر على الحقيقة.

سيعود إلى موقعه الأصلي: مخلوق لله. وحين يأمره الخالق أن يتكلم، يتكلم. وما أقسى أن يأتي شاهد الإدانة من الشيء الذي كنت تظنه أداة التنفيذ الصامتة. كنت تنظر بعينك.

فإذا العين تحفظ. وتسمع بأذنك. فإذا الأذن تحفظ. وتحرك بجلدك. فإذا الجلد يحفظ. كأن الجسد طوال الحياة يكتب مذكرات لا نقرأها. ثم تفتح يوم القيامة. وهنا يصبح معنى المراقبة أكثر عمقاً. ليس الله فقط يعلم. بل آثار أفعالك محفوظة في الوجود ذاته. ليس هناك فعل يذوب تماماً في الماضي. كل شيء له امتداد. وهذا يجعل اللحظة البشرية أكثر جلالاً مما نظن. نحن لا نعيش لحظات ثم تنفي. نحن نكتب. المقام الخامس «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ»: الوهم القديم في إمكان الاختباء من أعجب ما في الإنسان أنه يعرف أن الله عليم، ثم يعيش أحياناً كما لو كان يمكن أن يستتر.

وهذا تناقض لا يقع في مستوى العقيدة المعلنة، بل في مستوى الشعور. قد يقول بلسانه: الله يراني. لكن سلوكه في الخلوة يقول: كأن أحداً لا يراني. ولهذا كشفت الآيات: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. إن أخطر الظنون ليست التي تنطق بها الألسنة. بل التي تكشفها الأفعال. فقد يكون للإنسان «عقيدة قولية» و«عقيدة سلوكية». يقول شيئاً عن الله. ويتصرف على أساس تصور آخر. يقول إنه الرزاق، ثم يبيع مبادئه خوفاً على رزقه. يقول إنه القوي، ثم يذوب خوفاً من المخلوق. يقول إنه العليم، ثم يستخف بالخلوة. يقول إنه الحكيم، ثم لا يرى في أقداره إلا العبث. ومن هنا فإن الإيمان ليس أن تعرف أسماء الله فقط. بل أن تحول هذه الأسماء إلى طريقة عيش. أن تعيش مع «العليم» مختلفاً. ومع «الرزاق» مختلفاً. ومع «الرحيم» مختلفاً. ومع «الحكيم» مختلفاً. وإلا بقيت المعرفة فوق اللسان، ولم تنزل إلى مركز القرار في النفس. المقام السادس معركة الضجيج

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

قد تكون هذه الآية من أكثر آيات السورة قدرة على قراءة زمننا.

لم يقولوا: أجبوا حججه.

بل: لا تسمعوا. وهذا اعتراف عجيب. هم يعرفون أن مجرد السماع خطر. ثم: والغوا فيه. اصنعوا تشويشاً. ارفعوا أصواتاً حوله. حولوا لحظة الاستماع إلى ضوضاء. وفي زمننا لم يعد الضجيج يحتاج خصماً يقف بجوارك ويصرخ حين تقرأ القرآن. يكفي أن يكون جيبك ممتلئاً بالآلاف الأصوات. إشعار. ثم خبر. ثم صورة. ثم رسالة. ثم مقطع. ثم نقاش. ثم انفعال. ثم فضول جديد. وبعد ساعات طويلة يكشف الإنسان أنه استهلك قدرة قلبه على الانتباه كلها، ولم يبق للقرآن إلا دقائق متعبة في آخر الليل. إن الحرب على المعنى لا

تكون دائماً بمنعه. قد تكون بإغراق الإنسان في وفرة تمنعه من التركيز. ولذلك يصبح الصمت عبادة معرفية. أن تجلس مع القرآن ولا شيء ينافسه. أن تمنح آية واحدة خمس دقائق كاملة من قلبك. أن تسمح للكلمة أن تنزل. فهناك آيات لا تفتح نفسها للعارف. تحتاج إنساناً يقيم عند الباب.

المقام السابع «ربنا الله ثم استقاموا»: المشروع الإنساني كله في كلمات ربما لو طُلب أن تختصر سورة فصلت في نقطة التحول الكبرى فيها لكانت هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

قالوا. ثم استقاموا. بين الكلمتين حياة كاملة. ليس الإيمان أن تقول «ربنا الله» فقط. فالكثيرون يستطيعون قولها.

السؤال: ماذا حدث بعدها؟ هل غيرت هذه الجملة علاقتك بالمال؟ هل غيرت خوفك؟ هل غيرت غضبك؟ هل غيرت خلواتك؟ هل غيرت ما تحب وما تكره؟ هل دخلت إلى قراراتك؟ هل صارت معياراً؟ إن ثم هنا واسعة جداً. بين «قالوا» و«استقاموا» تقع سنوات من المجاهدة. وضعف. وتوبة. ونهوض. وتعلم. وصبر. والاستقامة ليست خطأ لا انحناء فيه لحظة واحدة. فالإنسان ليس ملكاً. لكنها أن يظل اتجاه حياته العام نحو الله. إذا مال رجع. إذا أخطأ استغفر. إذا ضعف استعان. إذا نسي تذكر. إن الاستقامة ليست أن لا تسقط. بل ألا تتخذ من سقوطك وطناً. المقام الثامن لماذا جاءت الملائكة في لحظة الخوف؟ ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

من لطائف المعنى أن المكافأة جاءت على هيئة ما يحتاجه الإنسان حقاً. فليست أعظم هدية في لحظة الانتقال من الدنيا مالا. فالمال بقي وراءك. ولا جاهاً. ولا بيتاً. ولا شيئاً من كل ما أفنيت العمر في جمعه. ما الذي يحتاجه الإنسان حين تنقطع كل روابط الدنيا؟ الأمان.

ولهذا كان أول الخطاب: لا تخافوا. ولا تحزنوا. كأن الله الذي عرف كل مخاوفك طوال حياتك قد ادخلك عند نهاية الطريق جواباً شاملاً لكل خوف. ما أمامك لن يؤذيكَ. وما خلفك لن يفجعك بعد الآن. إنه التحرر النهائي من الزمن. فالخوف ابن المستقبل. والحزن ابن الماضي.

وحين تقول الملائكة: لا تخافوا ولا تحزنوا، فكأن المؤمن ينتزع من سلطانهما معاً. ثم يدخل إلى عالم لا يطارده فيه ماضٍ ولا يهدده مستقبل. المقام التاسع «ادفع بالتي هي أحسن»:

المعركة مع الصورة التي يصنعها الآخر فيك من السهل أن تحسن إلى من أحسن إليك. هذا تبادل. لكن سورة فصلت تطلب مقاماً آخر: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

إنها لا تختبر أخلاقك في الحالة المريحة. بل حين يسيء إليك الآخر. لأن اللحظة التي يؤذيكَ فيها إنسان تمنحه فرصة عجيبة: أن يقرر أخلاقك بدلاً عنك. إن شتمك فشتمت، فقد جرّك إلى لغته. وإن ظلمك فتحولت إلى ظالم، فقد أعاد تشكيكك على صورته. أما القرآن فيريد أن يبقى مصدر أخلاقك أعلى من خصمك. أنت لا تحسن إليه لأنه يستحق الإحسان بالضرورة. بل لأنك لا تريد أن يفقدك سوءه أنت. وهذا مقام صعب.

ولهذا قال بعده مباشرة: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾.

إنك تحتاج صبراً لأنك لا تحارب شخصاً واحداً فقط. بل تحارب رغبة داخلك في أن تربيه ما يستطيع لسانك ويدك أن يفعلوا. وهنا تظهر القوة الحقيقية. فليس القوي من يستطيع أن يؤلم خصمه. قد يفعل ذلك الضعيف أيضاً حين يجد الفرصة. القوي هو من يستطيع أن يمنع خصمه من التحكم في جودة روحه. المقام العاشر «سنريهم آياتنا»: الوعد بأن الحقيقة لن تنفد شواهدا

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾.

السين هنا تفتح المستقبل. ليس معنى الآية أن الآيات قد عرضت وانتهى كل شيء. بل ستظل تتكشف. في الآفاق. وفي الأنفس. كل جبل يرى من عجائب الخلق ما لم يره الجبل قبله. وكلما توسعت معرفة الإنسان بالعالم لا يخرج من نطاق الآيات، بل يدخل إلى مستويات أعمق من الدهشة. كان يرى السماء نقطة زرقاء فوق رأسه. ثم عرف اتساع المجرات. وكان يرى الجسم قطعة لحم تتحرك. ثم عرف الخلية. ثم الشفرة الوراثية. ثم التعقيد العجيب في أعصاب الإنسان ودماغه. ولكن ينبغي أن نكون دقيقين: ليس المقصود أن نحمل كل اكتشاف علمي تفسيراً قرآنياً متعجلاً. فالقرآن أرفع من أن نعلقه بكل فرضية متغيرة.

لكن المعنى الأعمق ثابت: كلما اقترب الإنسان من بنية العالم اكتشف أنه أمام مستويات مذهلة من النظام والدقة والترابط. والقرآن يطلب منه ألا يقرأ ذلك بعين الآلة فقط. بل بعين السؤال: ماذا تقول هذه الأشياء عن خالقها؟ العلم يخبرك كيف يعمل بعض العالم.

والوحي يسألك: وماذا يعني أن هناك عالماً أصلاً؟ ولماذا يوجد قانون؟ ولماذا يستطيع العقل فهمه؟ ولماذا فيك قدرة على إدراك الجمال والحق والخطأ؟ إن الآفاق ليست بعيدة عن النفس. وحين يلتقي النظران، يشعر الإنسان أن الوجود يحيط به من الخارج، وأن سره يطارده من الداخل. المقام الحادي عشر النهاية التي تعيد تعريف البداية ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.

آخر كلمة تقريباً في الرحلة: محيط. وهذه الكلمة إذا رجعت بها إلى السورة كلها اكتشفت شيئاً بالغ الجمال. أول السورة يتحدث عن التنزيل. وآخرها يتحدث عن الإحاطة. كأن الكتاب نزل إليك من الإله الذي أنت أصلاً داخل ملكه وعلمه. أنت لا تقرأ رسالة من جهة بعيدة عنك. بل من رب يحيط بك. يعلم المكان الذي تقرأ فيه. ويعلم الأثر الذي أحدثته الآية. ويعلم الآية التي مررت عليها ببرود. ويعلم الآية التي ارتجف لها قلبك. ويعلم ذنبك قبل الاعتراف. ويعلم ألمك قبل الشكوى. ويعلم مستقبلك الذي تخافه. والماضي الذي لم تستطع نسيانه.

﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.

إنها ليست فقط عبارة تهدد المعرض. إنها أيضاً عبارة تُطمئن المؤمن. إذا كان الله محيطاً بكل شيء، فأنت لا تسقط خارج عنايته. ولا يحدث في حياتك شيء في أرض مجهولة عن علمه. قد تجهل أنت الحكمة. لكن الحدث نفسه لم يقع في فراغ. قد لا تعرف إلى أين تمضي القصة. لكن الكاتب يعلم نهايتها. وهنا يصبح التوكل شيئاً أعمق من قول: «سأترك أمري لله». إنه أن تعرف أن الأمر لم يخرج أصلاً من الله حتى تعيده إليه.

الإنسان في سورة فُصِّلَتْ: تشرح القلب بين النعمة والضراء في أواخر سورة فُصِّلَتْ يتحول المشهد من اتساع الآفاق إلى ضيق النفس، ومن السماء التي أطاعت والأرض التي خضعت إلى هذا الكائن العجيب الذي تثقل أحواله تثقل ما يقع في يده. وكأن السورة بعد أن أخذتك بعيداً لترى بناء السماوات، وتاريخ عاد وثمود، وشهادة الجوارح، وطمأنينة المستقيمين، تعيدك فجأة إلى داخلك وتقول لك: لا تبحث عن موضع الامتحان بعيداً، إن أعجب ساحات الصراع كلها هنا، في قلب الإنسان حين يُعطى وحين يُمنع، حين تتسع له الدنيا وحين تضيق، حين يجد ما يريد وحين يقف أمام باب مغلق لا يملك فتحه.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾. إن التعبير لا يقول فقط إن الإنسان يحب الخير، بل يقول: ﴿لَا يَسْأَلُ﴾؛ أي إن رغبته في الزيادة لا تكاد تعرف التعب. يطلب، ثم إذا حصل على ما طلب فتح باباً آخر للطلب، فإذا امتلأت يده بشيء امتدت إلى غيره، وإذا بلغ منزلةً نظر إلى التي فوقها. والنفس إذا تركت دون تربية لا تعرف كلمة «كفى»؛ لأنها تتعامل مع النعمة لا باعتبارها عطية تُشكر، بل باعتبارها درجة أولى لما ينبغي أن يأتي بعدها.

وهذه واحدة من عجائب النفس البشرية: أنها تتعب من العبادة، ولا تتعب من التقي؛ تسأم أحياناً من طول الذكر، ولا تسأم من عد ما ينقصها؛ تضيق بصلاة لا تستغرق دقائق، ولكنها تستطيع أن تقضي ساعات تتخيل مآلاً لم تملكه، ومكانة لم تبلغها، وأشياء لم تحصل عليها بعد. ولذلك كانت العبودية تحريراً للإنسان من استبداد الرغبة، لا قتلاً للرغبة نفسها؛

فالإسلام لا يطلب منك ألا تريد، وإنما يريدك ألا تصبح عبداً لما تريد. ثم تأتي النقطة الحادة: ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾. قال: ﴿مَسَّهُ﴾؛ ولم يقل استغرقه الشر أو أحاط به، فكأن مجرد المساس يكشف هشاشة البناء الداخلي حين لا يسنده يقين. شيء واحد يتغير، وباب واحد يغلق، وخسارة واحدة تقع، فإذا النفس التي كانت قبل قليل واسعة الأمان تضيق فجأة حتى تكاد لا ترى في الوجود نافذة.

وهذا هو الفرق بين نفس تتعامل مع الله، ونفس تتعامل مع الظروف فقط. النفس الثانية تستمد طمأنينتها من استقامة الأشياء حولها؛ فإذا اختلفت الأشياء اختلف معها. أما النفس التي عرفت الله فإنها تمتلك مركزاً أعمق من الحوادث؛ تتألم نعم، وتحزن نعم، وربما تبكي

طويلاً، لكن الحزن لا يتحول عندها إلى حكم على الله، والألم لا يتحول إلى إعلان أن الطريق انتهى. فاليأس في جوهره ليس مجرد شعور بالحزن، بل استنتاج عن المستقبل: لن يأتي خير. والقنوط أعمق منه؛ لأنه انطفاء الرجاء في الداخل. ولهذا كان اليقين بالله علاجاً للآتين، لا لأنه يعد الإنسان بأن كل ما فقدته سيعود إليه بالصورة التي يحبها، ولكن لأنه يعلمه أن خزان الخير أكبر من الصورة الوحيدة التي رسمها هو للخير. قد يغلق الله باباً كنت تظنه الباب الوحيد، ثم تكتشف بعد زمن أنه لو فتح لأدخلك إلى شيء يؤذك. وقد ينزع شيئاً تعلقت به حتى حسبت أنك لا تستطيع الحياة دونه، ثم تمر الأيام فتكتشف أن الحياة كانت أوسع من تصورك. وقد يؤخر ما دعوت به، لا لأن الدعاء ضاع، بل لأن الإنسان لا يرى من المشهد إلا موضع قدميه، والله يعلم الطريق كله.

وهنا يبدأ القرآن بإعادة بناء تصورنا عن النعمة والضراء؛ فالنعمة ليست دائماً دليل رضا، والضراء ليست دائماً دليل سخط، وكلاهما امتحان. وربما كان امتحان النعمة أخفى؛ لأن البلاء يجعل الإنسان ينتبه، أما النعمة فقد تجعله ينام.

حين يقول الإنسان: هذا لي

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾. تأمل كلمة ﴿أَذَقْنَاهُ﴾؛ فالنعمة كلها مهما اتسعت ليست إلا ذوقاً من خزائن لا تنفذ، والله سبحانه قادر أن يفتح للإنسان من الخير ما لا يخطر له على بال. ثم تأمل قوله: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾؛ فالآية تحدد المصدر قبل أن تذكر رد فعل الإنسان. الرحمة جاءت «منّا»، ولكنه حين تصل الرحمة إليه يقول: ﴿هَذَا لِي﴾.

وهنا تقع سرقة معنوية دقيقة جداً: تتحول النعمة من «من الله» إلى «لي». بين العبارتين تاريخ كامل من الغفلة. كان في الضراء يعرف ضعفه، فلما زالت الضراء بدأ ينسى اليد التي أخرجته منها. كان يدعو، ثم حين استجيب له تخيل أن ما وصل إليه نتيجة طبيعية لاستحقاقه.

إن كلمة ﴿هَذَا لِي﴾ هي بذرة الاستغناء. ليست المشكلة في أن يشعر الإنسان بملكيته للأشياء بالمعنى المعتاد، ولكن أن تتحول الملكية إلى وهم الاستحقاق الذاتي؛ كأنه يقول في سره: أنا جدير بهذا لأنني أنا. ومن هنا يولد الكبر، ثم ينطفئ الشكر؛ لأنك لا تشكر على شيء تعتقد أنه حق واجب لك.

الشكر لا يبدأ من اللسان حين تقول «الحمد لله»، بل يبدأ من تصورك للنعمة: هل تراها عطية أم استحقا؟ إن رأيته عطية انكسر القلب امتناناً، وإن رأيته استحقا بدأ يطالب بالمزيد، وربما غضب من الله إن نقص منه شيء. وكم من إنسان يذكر الله طويلاً قبل حصوله على ما يريد، ثم يقل ذكره بعد حصوله عليه. كان الشيء حين غاب عنه يقوده إلى الله، فلما حضر صار حجاباً بينه وبين الله. كان المرض يصنع منه داعياً، ثم أعادته الصحة إلى الغفلة. كانت الحاجة تكسر كبرياءه، ثم أعاد المال بناء الجدار. كانت الوحدة تجعله يترك باب الله، ثم جاءت الصحة فأغلق الباب. وهنا نفهم أن بعض النعم تحتاج إلى قوة إيمانية لملها، تماماً كما تحتاج المصائب إلى قوة إيمانية لاحتماها. فليس كل إنسان يستطيع أن يكون غنياً ويبقى فقير القلب إلى الله، ولا كل إنسان يستطيع أن يكون قوياً ويتذكر ضعفه، ولا كل إنسان يستطيع أن يمدح ويبقى عالماً بحقيقة نفسه.

أحياناً يكون المنع حمايةً من نسخة من أنفسنا لا نعرف كيف سنكون إذا أعطينا. من الضراء إلى الغرور في خطوات قليلة

قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسْتَهْ﴾. إن القرآن يذكر الإنسان بماضيه الذي نسيه بسرعة. قبل قليل كانت الضراء تمسه، وكان يعرف معنى العجز، وكان ربما يتقلب ليلاً وهو يرجو الفرج. فما إن جاءت الرحمة حتى بدأت ذاكرة الحاجة تتلاشى.

وهذا من أخطر ما تفعله العافية: تجعل الألم القديم يبدو بعيداً، مع أنه كان يوماً يملأ العالم كله. كم من نعمة نعيش فيها الآن كانت في زمن سابق دعاءً حاراً! كم من شيء صار عادياً اليوم كنا نحسب الحصول عليه فتحاً عظيماً! صحة الجسد، وجود بيت، سلامة قريب، قدرة على المشي، وجبة هادئة، نوم بلا خوف، صوت إنسان نجبه، صباح لا يحمل خبراً مفاجئاً، كل هذه الأشياء تتحول مع الاعتياد إلى خلفية صامتة، مع أنها كانت لو نُزعت منا لصرخ القلب طالباً عودتها. والشكر هو أن ترفض أن يجعل الاعتياد النعمة غير مرئية. إن المؤمن لا يحتاج دائماً إلى نعمة جديدة حتى يحمده الله؛ بل يحتاج أحياناً إلى عين جديدة يرى بها النعم القديمة.

حين يتجاوز الغرور الدنيا إلى الآخرة

ثم لا تقف النفس المغرورة عند قولها: ﴿هَذَا لِي﴾، بل تتقدم خطوة أشد غرابة: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَىٰ﴾. يا لهذه النفس؛ تشك في

الساعة، ثم تحتفظ لنفسها بمكان ممتاز فيها إن قامت! إنها لا تملك يقيناً بالآخرة، لكنها تملك يقيناً باستحقاقها.

وهذا يكشف طبقة عميقة من خداع النفس: الإنسان لا يريد فقط أن يعيش كما يشاء، بل قد يريد فوق ذلك أن يضمن لنفسه حسن العاقبة دون أن يغير طريقه. يريد الدنيا على هواه والآخرة على هواه أيضاً. إنه يسيء هنا ثم يقول: إن كان هناك حساب فلا بد أن أكون بخير. من أين جاء بهذا الضمان؟ من إحساس داخلي متضخم بالذات. لأنه قاس مقامه عند الله بما حصل عليه في الدنيا، فكأنه قال: ما دام قد أعطاني هنا فلا بد أنه يحبني، وإن كان يحبني فلن يعذبني هناك. وهذه معادلة يهدمها القرآن مراراً؛ فالعطاء الدنيوي ليس وثيقة نجاة، والمنع الدنيوي ليس حكم إدانة. الدنيا دار ابتلاء، وقد يعطي الله من يحب ومن لا يحب، ويمنع الحكمة، ويفتح لحكمة، ويجعل ما نعهده نحن مكسباً موضع امتحان شديد. ولهذا فإن السؤال الصحيح أمام النعمة ليس: لماذا أعطاني الله؟ إذن أنا أفضل. بل: ماذا يريد الله مني بما أعطاني؟

المال سؤال. والعلم سؤال. والجمال سؤال. والمنصب سؤال. والصحة سؤال. والقدرة على الكلام والكتابة والتأثير سؤال. وكل نعمة تحمل في داخلها يوماً ستسأل فيه: ماذا فعلت بها؟ حين تكون الضراء مرآة لا عقوبة فقط

ثم تقول السورة: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾. والدعاء العريض تصوير بدعي؛ كأن الدعاء الذي كان ضيقاً قليلاً أيام العافية يتمدد فجأة حين يضيق الواقع. يطول الكلام مع الله حين تقصر الحيل مع الناس.

وهنا لا تدم الآية أصل الدعاء عند الشدة؛ فالدعاء عبادة، والله يحب من عبده أن يلجأ إليه. وإنما تكشف التناقض: لماذا لا نعرف الطريق إلى الله إلا حين تغلق الطرق الأخرى؟ إن البلاء يكشف ترتيب الاعتماد داخل النفس. في الأيام الهادئة قد يتصور الإنسان أنه متوكل، ولكن حين تنهار الأسباب يظهر: على من كان قلبه متكئاً حقاً؟ هناك فرق بين أن تستخدم السبب وأن تسكن إليه. السبب وسيلة، لكن القلب ينبغي أن يسكن إلى مسبب الأسباب. فإذا جعلت سكينتك متوقفة على السبب، صار زواله زلزالاً داخلياً. أما إذا بقي السبب في اليد والله في القلب، استطعت أن تفقد الوسيلة دون أن تفقد الوجهة. والبلاء لهذا قد يكون عملية كشف رحيمة. يهدم الله بعض ما اتكأنا عليه، فنرى لأول مرة أن

قلوبنا كانت معلقة بما لا ينبغي أن تكون معلقة به. وإذا فقه الإنسان هذا، تغير سؤاله من «لماذا أخذ مني هذا؟» إلى سؤال أعمق: «ماذا يريد الله أن يحرق قلبي منه بهذا الأخذ؟». ليس كل فقد تحريراً بالضرورة، ولا يجوز للإنسان أن يجزم بحكمة معينة لم يطلع الله عليها، لكن المؤمن يعلم على الأقل أن البلاء ليس حدثاً خارج العلم والحكمة، وأن الألم وإن خفي معناه لا يقع في كون مهمل.

القرآن لا يريد إنساناً تحكمه نشرة أحواله

الصورة التي رسمها الآيات لنفس لم يهذبها الإيمان شديدة القلب: إن جاء الخير طلب المزيد، وإن جاء الشر يئس، وإن جاءت الرحمة بعد الضراء قال هذا لي، وإن أنعم الله عليه أعرض ونأى بجانبه، وإن أصابه الضر عاد بدعاء عريض. إنها نفس تعيش مثل مؤشر يتحرك مع الأحداث. صعود في الخارج؛ صعود في الداخل. هبوط في الخارج؛ انهيار في الداخل. أما الإيمان فبريد بناء شيء أكثر ثباتاً: قلب يعرف الله في الحالتين. إذا أعطي شكر، وإذا منع صبر، وإذا أذنب استغفر، وإذا التبس عليه الأمر توقف عند حدود علمه وأحسن الظن بربه. وهذه ليست برودة شعورية؛ فالمؤمن ليس حجراً. قد يفرح جداً بالنعمة، ويحزن جداً على الفقد. والقرآن لم يطلب منه قتل إنسانيته، لكنه يطلب ألا تصبح مشاعره آلهة تقوده حيث شاءت.

فالخزن شعور، واليأس موقف. والخوف شعور، وسوء الظن بالله موقف. والفرح شعور، والبطر موقف. والألم شعور، والاعتراض على حكمة الله موقف. وهذه الفروق الدقيقة هي التي تصنع الإنسان الرباني، إنساناً يشعر بكل شيء، لكنه لا يسلم قيادة قلبه لكل شعور عابر. النعمة الكبرى: ألا تغريك النعمة ربما كان من أجهل أنواع الحفظ الذي ينبغي أن يسأله الإنسان ربه: أن يحفظ قلبه بعد العطاء كما حفظه في زمن الحاجة. أن يأتي المال ولا يرحل التواضع. أن يأتي النصر ولا ترحل العبودية. أن يأتي المدح ولا ترحل معرفة النفس. أن تأتي الصحة ولا يرحل الدعاء. أن تسع الدنيا ولا يضيق الطريق إلى الله. إن بعض الناس يخون من الفقر ثم يهزمهم الغنى، ويخون من الضعف ثم تهزمهم القوة، ويخون من الخفاء ثم تهزمهم الشهرة. لم يكن الامتحان الأول هو الأخطر دائماً؛ لقد كانت الحنة تربي فيهم الافتقار، ثم جاءت المنحة لتختبر: هل كان الافتقار لله، أم كان مجرد نتيجة للحاجة؟

المؤمن الناضج هو الذي يستطيع أن يقول في الضراء: يا رب، ويقولها بالحرارة نفسها في الرخاء. وهذا مقام عزيز. أن تظل يدك على الباب بعد أن فُتح لك.

من «هَذَا لِي» إلى «هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي»

وهنا نستطيع أن نرى أن القرآن يربي الإنسان على تحويل لغته الداخلية. النفس الغافلة تقول: ﴿هَذَا لِي﴾. أما القلب الذي عرف الله فيتعلم أن يقول: هذا من فضل ربي. والفرق بين الجملتين ليس لغوياً فقط؛ بل حضاري ونفسي وروحي. «هَذَا لِي» تجعل الإنسان مركز العالم، أما «هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي» فتضع النعمة في سياقها الحقيقي. الأولى تولد الاستعلاء، والثانية تولد الشكر. الأولى تجعل الآخر ينظر إليك بوصفه أقل حظاً منك، والثانية تجعلك ترى أنك أنت أيضاً فقير لولا فضل الله. ومن قال في قلبه «هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي» لن يحتقر المحروم؛ لأنه يعلم أنه لم يصنع خزائنه بيده. ولن يأمن زوال النعمة؛ لأنه يعلم أنها ليست ملكاً ذاتياً مطلقاً. ولن يخل بها؛ لأنه يعرف أن الذي أجراها إليه يستطيع أن يجعل جزءاً من رسالتها أن تجري منه إلى الآخرين. وهكذا يتحول الإيمان من فكرة إلى أخلاق اقتصادية واجتماعية ونفسية. لماذا يعيد القرآن الإنسان إلى نفسه بعد الحديث عن الآفاق؟

في ختام السورة يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾. وكأن الآيات التي حلت تقلب النفس قبل ذلك كانت جزءاً من «وفي أنفسهم». ليس جسدك وحده آية؛ تقلباتك النفسية نفسها مادة للتفكير.

تأمل كيف تفرح. كيف تخاف. كيف تتعلق. كيف تنسى. كيف تعود إلى الله حين تنقطع الحيل. كيف تنضخم عند النجاح. كيف تصبح هشاً أمام خسارة لم تتوقعها. هذه كلها ليست أحداثاً يجب أن تعبر منها سريعاً؛ إنها مرايا. وقد يعرف الإنسان عن نفسه في يوم مرض ما لم يعرفه في عشر سنوات صحة، ويكتشف من تعلقاته في خسارة واحدة ما لم تكشفه آلاف المواعظ، ويرى في لحظة عجز طبقات كاملة من الوهم كانت محتبئة خلف قدرته. ولهذا فإن من فقه البلاء خرج منه بمعرفة، لا بمجرد ذكرى ألم. السؤال بعد كل تجربة ليس فقط: ماذا حدث لي؟ بل: ماذا كشف لي عني؟

السورة التي تريد قلباً لا تبتلعه الأحوال

إذا جمعنا هذه الآيات كلها بدا كأن سورة فصلت تريد أن تنقل الإنسان من حياة ردود الأفعال إلى حياة العبودية. فلا يكون عبداً للنعمة إذا أقبلت، ولا للبلاء إذا نزل، ولا للناس إذا مدحوا، ولا للأعداء إذا أساءوا، ولا للأسباب إذا فتحت، ولا للظروف إذا أغلقت. يكون لله.

وهنا يعود بنا السياق إلى واحدة من أعظم جمل السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

إن معنى «ربنا الله» أوسع بكثير من الاعتراف بأن الله موجود. إنه يعني: ربنا الله حين تعطينا الدنيا، وربنا الله حين تمنعنا، وربنا الله حين نفهم، وربنا الله حين لا نفهم، وربنا الله حين يفتح الطريق، وربنا الله حين يأذن أن يبقى الباب مغلقاً مدة لا نعرفها. إذا استقر هذا في القلب بدأت الاستقامة. فالاستقامة في النهاية ليست ثبات القدم فقط، بل ثبات المرجعية. أن يبقى الله هو تفسيرك الأعلى للحياة.

من «أَتَيْنَا طَائِعِينَ» إلى «رَبُّنَا اللَّهُ»: سرّ الانسجام بين الكون والمؤمن من أبداع الخيوط التي تمر في سورة فصلت خيطُ يبدأ في أعلى السماء وينتهي في أعماق موضع من القلب؛ فالسما والأرض تقولان: «أَتَيْنَا طَائِعِينَ»، ثم بعد صفحات قليلة يأتي الإنسان المؤمن فيقول: «رَبُّنَا اللَّهُ» ثم يستقيم. وبين العبارتين سر بالغ الجمال: الكون يطيع الله بحكم الخلق، والمؤمن يختار أن يجعل إرادته الحرة منسجمة مع هذه الطاعة الكبرى. ومن هنا تصبح الاستقامة أكثر من خلق فردي؛ إنها مصلحة بين الإنسان وبنية الوجود نفسها.

حين نتأمل قوله تعالى: «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»، لا ترى مجرد خبر عن نشأة الكون، بل ترى صورة مهيبة للعالم كله وهو داخل تحت الأمر. لا تفاوض، ولا تردد، ولا مقاومة. السماء تمضي إلى ما أمرت به، والأرض تمضي إلى ما أمرت به، وكل ذرة في الوجود تستقر في موضعها داخل نظام لم تصنعه بنفسها. ثم يظهر الإنسان، هذا الكائن الذي مُنح مساحة من الإرادة، فيصبح السؤال الأكبر: هل ينسجم باختياره مع ذلك العالم المطيع، أم يصنع لنفسه نشازاً خاصاً وسط هذا الانضباط الكوني الهائل؟

إن الإنسان في لحظة الطاعة لا يصنع شيئاً غريباً عن العالم، بل يعود إلى أصله. وحين يسجد لله فإن سجوده ليس حركة منفصلة عن الكون، بل استجابة واعية لنداء يسري في كل شيء. ولهذا كان الكفر والاستكبار خروجاً عن الانسجام، لا تحرراً. فالسما ليست حرة لأنها خرجت عن أمر الله، بل كالمها في أنها جرت وفق ما خلقت له. والشمس ليست ضعيفة لأنها لا تخرج عن مسارها، بل قوتها في وفائها بالسنن التي أقامها الله فيها. والإنسان أيضاً لا يجد كماله في أن يتحرر من العبودية، بل في أن يتحرر من كل عبودية غيرها. وهنا نفهم شيئاً من سر الراحة التي يجدها المؤمن في الاستقامة. ليست راحته لأن الحياة تصير بلا تعب، ولا لأن الأقدار تتوقف عن الاختبار، بل لأن هناك انسجاماً داخلياً يحدث حين تتوافق إرادته مع الغاية التي خلُق لها. كثير من القلق الإنساني ينشأ من الانقسام: يعرف شيئاً ثم يعيش عكسه، يؤمن بقيمة ثم يخونها، يحب الطاعة ثم يجره الهوى بعيداً عنها، فتتوزع النفس بين اتجاهات متناقضة. أما الاستقامة فتجمع الشتات. تجعل القلب يقول

شيئاً، واللسان يقول الشيء نفسه، والسلوك يتحرك في الاتجاه نفسه. وهذه الوحدة من أعظم أشكال السكينة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾. لم يقل: عرفوا أن ربهم الله فقط، لأن المعرفة الذهنية وحدها لا تصنع هذا الانسجام. قالوا، ثم استقاموا. القول إعلان، والاستقامة ترجمة. وبينهما تنتقل العقيدة من كونها حقيقة محفوظة في الرأس إلى كونها هيئة للحياة. فمن قال «ربنا الله» ثم خاف المخلوق خوفاً يخرج به عن الحق، لم تكتمل الترجمة. ومن قال «ربنا الله» ثم جعل المال سيد قراره، بقي شيء من التناقض. ومن قال «ربنا الله» ثم استقامت وجهته إليه، صار الإنسان منسجماً مع كلمته.

إن معنى «ربنا الله» يطرد من القلب الأرباب المتناثرة. رب المال، ورب الصورة الاجتماعية، ورب المزاج، ورب الخوف، ورب رغبة الناس، ورب الشهوة، ورب العادة. ليس المقصود أن الإنسان يسجد لهذه الأشياء سجد العباداة الظاهر، بل أن بعضها قد يستولي على مركز القرار حتى يصير هو الذي يحدد ما يفعل وما يترك. وهنا تأتي كلمة «ربنا الله» لتعيد ترتيب السيادة في الداخل. الله أولاً، ثم توزن كل الأشياء بعده. ومن هنا كانت الاستقامة معركة توحيد مستمرة. ليست لحظة واحدة ينتهي بعدها الصراع، بل عملية تطهير متواصلة للقلب من منافسين صغار يزاحمون معنى العبودية. كلها أحب الإنسان شيئاً أكثر من اللازم احتاج أن يسأل: هل بدأ هذا الشيء يأخذ في قلبي ما لا ينبغي إلا لله؟ وكلها خاف شيئاً أكثر من اللازم احتاج أن يسأل: هل صار خوفي منه يغير قراراتي بعيداً عن الحق؟ وكلها تعلق بإنسان تعلقاً شديداً احتاج أن يراجع: هل صار رضاه ويخطفه أهم عندي من رضا الله؟

الاستقامة ليست فقط أن تفعل الصواب؛ بل أن تحرس مركز قلبك من أن يحتله غير الله.

حين يصبح السجود عودةً إلى النظام الكوني

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. إن السجود هنا يأتي بعد عرض آيات كونية مبهره، وكأن القرآن يريد أن يصحح انجذاب الإنسان إلى الجمال والقوة. قد تتقف أمام الشمس فتبهيك، وقد تنظر إلى القمر فيأخذ قلبك، لكن الآية تقول: لا تتوقف عند الأثر، انتقل إلى المؤثر. لا تجعل روعة المخلوق حجاباً عن الخالق.

وفي هذا المعنى تربية معرفية دقيقة؛ فكل جمال في الكون ينبغي أن يكون طريقاً إلى الله، لا نهايةً عند ذاته. ترى بحراً مهبياً، فتشعر بعظمة من خلقه. ترى سماءً ممتدة، فتتسع فيك دلالة القدرة. ترى وجهاً جميلاً، فتدرك أن الجمال نفسه عطية. ترى عقلاً مبدعاً، فتذكر واهب العقل. أما حين يُنسَى الخالق، تتحول النعمة إلى صنم صغير. والسجود هو الحركة التي تعيد ترتيب النسب. يهبط الرأس إلى الأرض، لكن الروح ترتفع إلى موضعها الصحيح. يتخلى الإنسان لحظة عن وهم الاستعلاء، فيضع أشرف موضع فيه، وجهه، على التراب. ولعل في هذا سرّاً من أسرار الراحة في السجود: إنه لحظة لا يحتاج فيها الإنسان أن يمثل القوة، ولا أن يدافع عن صورته، ولا أن يحمل العالم على كتفيه. يكفي أن يكون عبداً. كم يتعب الإنسان حين يظن أنه يجب أن يسيطر على كل شيء. يراقب النتائج، ويحاول أن يضمن المستقبل، ويتخيل السيناريوهات، ويعيد الحسابات. ثم يأتي السجود ليقول له جسدياً قبل أن يقوله لفظياً: أنت لست الرب. أنت عبد. افعل ما تستطيع، ثم اترك ما لا تستطيع لمن يملك كل شيء.

وهذه ليست دعوة إلى السلبية، بل إلى تحرير العمل من عبء الألوهية المتهمة. تعمل لأنك مأمور بالعمل، لا لأنك تظن أنك المتحكم الوحيد في النتائج. تبذل السبب كاملاً، ثم لا تجعل قلبك عبداً للنتيجة. وفي هذا يتشكل التوازن الذي يصنع المؤمن القوي: أقصى السعي، وأعمق التوكل.

الليل والنهار: الزمن نفسه آية

تقول السورة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾. اعتدنا الليل والنهار حتى صارا من أكثر الأشياء غياباً عن وعينا، مع أنهما يحيطان بكل لحظة من حياتنا. كل شيء يحدث داخلهما: الولادة، والموت، والفرح، والحزن، والنجاح، والانكسار. ومع ذلك نادراً ما نقف أمامهما باعتبارهما آيتين.

القرآن يعيد للإنسان قدرة الدهشة أمام المألوف. فما أشد حاجتنا إلى هذه القدرة؛ لأن الاعتياد لا يقتل جمال الأشياء فقط، بل يقتل دلالتها. حين تعتاد نعمة البصر تنسى أنها معجزة يومية. وحين تعتاد التنفس تنسى أنك تستقبل الحياة في كل شهيق. وحين تعتاد طلوع الشمس لا ترى أن العالم كله كان قبل ساعات غارقاً في الظلمة ثم انفجر بالنور. التدبر هو أن تستعيد الأشياء من أسر العادة. أن تنظر إلى الليل لا كمرحلة انتظار للصباح فقط، بل كستر ورحمة وسكون. وأن تنظر إلى النهار لا كوقت للعمل فقط، بل كفتح

للعين والحركة والرزق. وحين يقرأ المؤمن الكون بهذه الطريقة، يصبح يومه محاطاً بالتذكير دون أن يحتاج دائماً إلى أحداث استثنائية. فالآيات ليست نادرة. نحن الذين نادراً ما ننتبه.

الأرض الخاشعة: كيف يتعلم القلب من التراب؟

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

يصف القرآن الأرض بالخاشعة، وهو وصف يحمل في داخله شيئاً من الشعور، لا بمعنى مشابهة خشوع الإنسان، بل بما يوحي به من سكون وخضوع. الأرض يابسة ساكنة، كأن الحياة قد غادرتها، ثم ينزل الماء، فإذا فيها حركة ونماء.

وهذا المشهد لا يتحدث عن الأرض وحدها. إنه يلمس القلب من طرف خفي. فكم من قلب مر عليه زمن بدا فيه كالأرض الخاشعة؛ لا حركة كبيرة، ولا شوق، ولا حرارة. يقرأ فلا يتأثر، ويدعو فلا يشعر، ويسجد كأنه يؤدي حركة محفوظة. ثم ينزل عليه من رحمة الله شيء: آية في وقتها، مصيبة تكسر قسوته، نعمة تفتح عينه، كلمة صادقة، لحظة خلوة، فإذا القلب الذي ظن أنه مات يهتز من جديد. إن القلوب أيضاً تعرف مواسم الجذب والربيع. وليس جفاف القلب حكماً نهائياً. الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر أن يحيي روحاً أثقلتها الغفلة. ولذلك لا ينبغي للإنسان أن يئأس من نفسه لمجرد أنه وجد قسوة أو فتوراً، لكن عليه أن يبحث عن ماء القلب: قرآن يُقرأ بتأنٍ، دعاء صادق، توبة حقيقية، ذكر يخرج من اللسان إلى الوعي، وصحبة توقف.

إن أخطر ما يفعله الفتور أن يقنع الإنسان أن هذه حالته النهائية. والآية ترد: انظر إلى الأرض. كانت ساكنة ثم اهتزت.

من طاعة الكون إلى طاعة الجوارح

في السورة مشهدان بينهما صلة عجبية. في الأول تقول السماء والأرض: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. وفي الثاني تنطق الجوارح يوم القيامة بأمر الله. كأن السورة تقول للإنسان: كل شيء فيك وحولك داخل في سلطان الله؛ جسدك الذي تتوهم أنه أداة خاصة بك سيعود يوماً إلى مقام الطاعة الكاملة، وينطق بما شاء الله.

إن التردد في حياة الإنسان محدود ومؤقت. يستطيع أن يعصي، لكنه لا يستطيع أن يخرج من الملك. يستطيع أن يستخدم لسانه في الباطل، لكنه لا يملك ضمان أن يظل لسانه سائماً حين يأمره الله بالكلام. يستطيع أن يوجه عينه حيث يريد الآن، لكن العين نفسها ستدخل يوماً في شبكة الشهادة. وهذا يجعل الحرية الإنسانية أمانة ثقيلة. لقد أعطاك الله مساحة

تستطيع فيها أن تختار، لا لأنك صرت مستقلاً عنه، بل لأن هذه المساحة هي موضع امتحانك. وأجمل ما تفعله بهذه الحرية أن تعيدها طوعاً إلى الله قبل أن تعود إليه قهراً. وهنا يصبح معنى ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ دعوةً ضمنية للإنسان: كن أنت أيضاً من الطائعين، لكن بطريقتك الخاصة؛ لا بطاعة المادة التي لا اختيار لها، بل بطاعة الوعي الذي رأى ثم اختار. ما الذي يجعل الإنسان يختار النشاز؟ إذا كان الانسجام مع الله يريح القلب، فلماذا يصير الإنسان أحياناً على العكس؟ لأن بعض الذات قريبة، وبعض العواقب بعيدة. الإنسان يرى الشهوة الآن، ولا يرى أثرها الكامل بعد سنوات. يرى مكسب المعصية العاجل، ولا يرى الخسارة التي تتراكم في الداخل. ولهذا يحتاج إلى الوعي؛ لأن الوعي يوسع مجال رؤيته. العقل المحدود يميل إلى الحاضر. القرآن يفتح المستقبل. يقول لك: لا تنظر إلى الفعل فقط، انظر إلى مآله. لا تنظر إلى اللذة فقط، انظر إلى ما ستصنعه في قلبك. لا تنظر إلى الظلم وهو يحقق مصلحة، انظر إلى يوم نتكلم الجوارح. لا تنظر إلى الاستقامة وهي شاقة، انظر إلى الملائكة وهي تقول: ﴿الَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

ومن هنا فإن الإيمان قوة على تأجيل الحكم. ألا تقيس كل شيء بلحظته. قد يكون الطريق الصعب الآن هو الأرحم لاحقاً، وقد تكون اللذة السهلة الآن هي الباب إلى تعب طويل. وهذه الرؤية الطويلة من أعظم ما يمنحه القرآن للإنسان. الاستقامة ليست جماداً بل حياة

قد يفهم بعض الناس الاستقامة وكأنها تصلب أو جمود، لكن سياق السورة يرسمها بصورة مختلفة تماماً. الذين استقاموا هم الذين تنزل عليهم الملائكة بالبشارة، وهم الذين يدخلون عالماً من الأمن، وهم الذين يتحررون من الخوف والحزن. فالاستقامة ليست إلغاءً للحياة، بل الوصول إلى صورتها الأكثر أماناً. إنها أن تتحرك دون أن تضيق، وتحب دون أن تعبد ما تحب، وتفرح دون أن تبطر، وتحزن دون أن تقنط، وتنجح دون أن تتكبر، وتفشل دون أن تنهار، وتواجه العدو دون أن يسمح لك عدوه أن تصبح مثله. هذه هي القوة التي تصنعها الاستقامة: أن يبقى مركزك ثابتاً بينما تتحرك الأشياء حولك.

من «ربنا الله» إلى «لا تخافوا»

هناك تناسب أخاذ بين ما قاله المؤمنون وما قيل لهم. هم قالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾، فقليل لهم: ﴿الَّا تَخَافُوا﴾. وكأن من استقر في قلبه أن الله ربه الحقيقي أعطى في النهاية ثمرة هذه المعرفة: الأمن.

فالخوف يتضخم حين نظن أن العالم بلا رب، أو حين نتصرف كأن الأسباب هي الآلهة الصغيرة التي تتحكم في مصيرنا. أما حين يعرف القلب أن فوق كل سبب رباً، وأن فوق كل قوة قوة، وأن فوق كل مستقبل علماً، يبدأ الخوف في الرجوع إلى حجمه الطبيعي. ليس معنى ذلك أن المؤمن لا يخاف. الخوف غريزة. لكن الفرق أن خوفه لا يصبح سيده. هو يشعر به ثم يرفعه إلى الله. يملك الخوف ولا يملكه الخوف. وكم من إنسان عاش سنوات يردد «ربنا الله» بلسانه، ثم احتاج موقفاً واحداً صعباً ليكتشف هل استقرت هذه الجملة في أعماق موضع منه أم لا. لماذا قالت السورة: «ثم استقاموا»؟ «ثم» توجي بمسافة. ليست الاستقامة آلية تأتي فور النطق. هناك زمن بين الاعتراف والعمل، وبين بداية الطريق ورسوخ القدم. وهذا يمنح المؤمن شيئاً من الرحمة مع نفسه. لا يتوقع أن يتحول في يوم واحد إلى صورة مكتملة. لكنه أيضاً لا يتخذ ببطء التغيير ذريعة للتوقف.

الطريق يحتاج تكراراً. كل يوم تعيد ترتيب قلبك. كل موقف يختبر العبارة من جديد: من ربك الآن؟ حين تغضب، من ربك؟ حين تُمدح، من ربك؟ حين تُهمل، من ربك؟ حين يأتي المال، من ربك؟ حين يذهب، من ربك؟ الاستقامة ليست جواباً واحداً في بداية الحياة، بل الجواب نفسه يتكرر في مئات المواقف.

«ادْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»: كيف يهزم القرآن العداوة من داخلها
إذا كان القسم السابق قد كشف انسجام المؤمن مع الكون في طاعته لله، فإن هذا القسم
يكشف وجهاً آخر أكثر صعوبة: كيف يحافظ المؤمن على هذا الانسجام حين يدخل إنسان
آخر إلى حياته بالإساءة؟ هنا لا يصبح الامتحان بينك وبين شهوة أو خوف فقط، بل بينك
وبين خصم يريد أن يستفز أسوأ ما فيك. وفي هذه اللحظة تقدم سورة فصلت واحدة من
أرفع قواعد صناعة الإنسان: لا تسمح للشخص الذي جاءك من الخارج أن يعيد تشكيلك من
الداخل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. هذه الآية لا تقدم لك خلقاً اجتماعياً لطيفاً فحسب، بل تكشف
قانوناً عميقاً من قوانين النفس البشرية: الشر إذا رُدَّ بشر مثله تضاعف، وإذا وُوجه بما هو
أعلى منه خُلِقَ فقد يفقد قدرته على الاستمرار. إن الإساءة تعيش من التغذية المتبادلة؛ كلمة
تلد كلمة، وجرح يستدعي جرحاً، وغضب يستحضر غضباً، حتى تصبح الخصومة كياناً
مستقلاً يكبر من الطرفين. ثم يأتي القرآن فيقطع السلسلة عند أحدهما ويقول: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ﴾.

تأمل أنه لم يقل: ادفع بالحسنة فقط، بل قال: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ وكأن المقام ليس
مجرد الخروج من دائرة الإساءة، بل الارتقاء فوقها. قد يكون الرد حسناً، ولكن هناك ما
هو أحسن منه؛ صمت أحسن من كلمة، وعفو أحسن من توبيخ، ورفق أحسن من قسوة،
وكلمة تحفظ كرامتك وكرامة خصمك معاً أحسن من انتصار سريع يترك وراءه جرحاً
طويلاً. والقرآن يريد منك أن تبحث لا عن الحد الأدنى من الخير، بل عن الصورة الأرفع
التي تستطيع بها أن تواجه الشر دون أن يصيب روحك بعدواه.

وهذا من أصعب الأخلاق؛ لأن الإنسان حين يُساء إليه لا يعيش فقط أمام خصم
خارجي، بل أمام خصم داخلي يستيقظ فوراً: الكرامة المجروحة، والرغبة في استعادة
التوازن، وحب أن يشعر الآخر بالألم نفسه. في تلك اللحظة تصبح القضية أكبر من مجرد
الرد؛ إنها امتحان في السيادة على النفس. من الذي يقرر طبيعة تصرفك: مبدأك أم استفزاز
خصمك؟ إذا استطاع الآخر أن يجعلك تتخلى عن قيمك لمجرد أنه أساء، فقد نال منك أكثر
مما لو انتصر عليك في جدال؛ لقد أجبرك على أن تصبح صورة منه. ولهذا فإن الدفع بالتي

هي أحسن ليس ضعفاً، بل استرداد للسيادة. أنت تقول ضمناً: لن أسمح لك أن تحدد مستوى أخلاقي. لن تجرني إلى المكان الذي تقف فيه. سأجيبك من المكان الذي أريد أنا أن أقف فيه أمام الله.

العداوة التي تتحول إلى مودة

ثم تأتي النتيجة المدهشة: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. التعبير لا يعد فقط بإيقاف العدا، بل يفتح احتمال تحولهِ إلى قرب. وهذا تحول نفسي بالغ العمق؛ لأن كثيراً من الخصومات تستمر لا لأن أصلها قوي، بل لأن كل طرف يجد عند الآخر دليلاً جديداً يثبت به سوء ظنه. يسيء هذا، فيرد الآخر بإساءة أشد، فيقول الأول: رأيت؟ كنت محقاً في عدائي. ثم تستمر الحلقة.

أما حين يفاجأ الخصم بخلاف ما توقع، فقد يحدث شرح في الصورة التي بناها. كان ينتظر القسوة فجاءه حلم، وينتظر الإهانة فجاءته كرامة، وينتظر انتقاماً فجاءه عفو. هنا تبدأ العداوة بخسارة مادتها النفسية. ليس دائماً، وليس مع كل الناس، فالقرآن لا يقرر أن كل مؤذ سينقلب صديقاً حتماً، لكنه يكشف إمكاناً عظيماً في النفس: أن الإحسان قد يفتح باباً أغلقه العنف. وهذا يربي المؤمن على ألا يتعامل مع الناس كما هم فقط، بل كما يمكن أن يكونوا. قد يكون أمامك خصم اليوم، وفي داخله بقية خير لم تصل إليها بعد. وقد تكون الطريقة التي تعامله بها سبباً في إخراج ذلك الخير أو دفنه أعمق. لماذا يحتاج هذا الخلق إلى الصبر؟

قال تعالى بعدها: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. جاء الصبر هنا لأن الخير الرفيع لا يخرج دائماً من النفس بسهولة. أنت لا تحتاج إلى الصبر فقط على أذى الآخر، بل على ما يثور فيك بسبب أذاه. تصبر على اندفاع الغضب، وعلى الرغبة في الرد، وعلى إحساسك أن العفو قد يفهم خطأ، وعلى خوفك من أن يقال إنك ضعيف. وفي هذا معنى مهم: الأخلاق الرفيعة ليست انفعالات تلقائية عند أغلب الناس، بل بناء يحتاج تدريباً. لا يصبح الإنسان حليماً بمجرد أن يحب الحلم، ولا عفواً بمجرد أن يعجبه العفو. يتعلم ذلك عبر مواقف حقيقية تكلفه شيئاً من نفسه. الصبر هنا ليس سكوتاً سلبياً، بل قدرة على تأخير رد الفعل حتى لا يكون ردك مجرد انفجار. كم من كلمة ندم عليها صاحبها لأنها خرجت قبل أن يمر الغضب من باب العقل. وكم من علاقة تهدمت في دقائق لأن أحد الطرفين أراد أن يربح اللحظة، نخسر سنوات.

والقرآن حين يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، كأنه يخبرك أن لحظة الإساءة ليست اللحظة المناسبة لتسليم القيادة لأسرع شعور فيك.

«ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ»: إعادة تعريف الحظ

من أروع ما في الآية وصف من بلغ هذا الخلق بأنه ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. نحن عادة نربط الحظ بما يدخل حياتنا من الخارج: مال، فرصة، منصب، نجاح، شهرة. أما القرآن فيضع الحظ هنا في الداخل؛ في القدرة على امتلاك النفس عند الإساءة.

كأن أعظم المكاسب ليست ما تملكه في يدك، بل ما لا يفلت منك في قلبك. أن تملك القدرة على ألا يحكمك الغضب حظ عظيم. أن تخرج من الخصومة وقلبك غير مسموم حظ عظيم. أن تستطيع النوم وأنت لم تحمل حقداً ينهشك حظ عظيم. أن تحتفظ بإنسانيتك أمام من حاول أن يترعها منك حظ عظيم. وكم من إنسان ملك أشياء كثيرة وخسر نفسه، وكم من إنسان لم يملك إلا قلباً نقياً فكان أغنى مما يظن الناس. متى لا يكون العفو فضيلة؟ لا ينبغي أن يفهم دفع السيئة بالتي هي أحسن على أنه إلغاء للعدل، أو دعوة لترك الظالم يعبث بلا حد، أو نهي عن حماية الحقوق. القرآن نفسه شرع العدل والقصاص، ولم يجعل التسامح غطاءً للتمادي في الظلم. المقام هنا يتعلق بهيئة القلب وطريقة الدفع، لا بإسقاط كل حدود المسؤولية.

قد يكون «الأحسن» أحياناً عفواً، وقد يكون موقفاً حازماً بلا ظلم، وقد يكون قطع علاقة مؤذية دون تشفٍ، وقد يكون رد حق صاحبه عبر طريق مشروع. الفضيلة ليست أن تسمح للناس أن يؤذوك بلا نهاية، بل ألا تجعل مواجهة الأذى سبباً لأن تفقد ميزانك. والفرق عميق بين الحزم والانتقام. الحزم يحمي الحق، أما الانتقام فيريد إيلاام الخصم لذاته. الأول يمكن أن يصدر عن قلب هادئ، والثاني يعيش على نار الداخل.

النزغ الذي يأتي بعد الجرح

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. جاء ذكر الشيطان مباشرة بعد الحديث عن دفع السيئة بالتي هي أحسن، وكأن السياق يعرف موضع الخطر بدقة. فالشيطان لا يحتاج دائماً إلى أن يأمرك بمعضية كبيرة، يكفيه أحياناً أن يهمس لك في لحظة غضب: لا تسكت، أره من أنت، ردها مضاعفة، لا تكن ضعيفاً. النزغ خفيف في بدايته، لكنه قد يفتح أبواباً واسعة. فكرة صغيرة تمر بالقلب، ثم يتبناها الإنسان، ثم تتحول إلى كلمة، ثم فعل، ثم خصومة قد تستمر سنوات. ولهذا كان العلاج

سريعاً: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾. لا تدخل في حوار طويل مع النزغ. لا تمنحه وقتاً لينمو. انتقل مباشرة إلى الله.

وهذه تربية عميقة في إدارة النفس؛ بعض الخواطر لا تحتاج نقاشاً، بل قطعاً. أنت تعرف مصدرها واتجاهها، فاستعد بالله منها قبل أن تتحول إلى قرار.

السميع العليم: الذي يسمع الإساءة ويعلم ما في صدرك ختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وهذه الخاتمة تحمل طمأنينة خفية. حين يمنعك القرآن من الانفجار في وجه من ظلمك، قد يشعر قلبك كأنه فقد حقه في أن يُسمع. فتأتي الآية: الله سميع. سمع الكلمة التي جرحتك. لا تحتاج أن ترفع صوتك إلى آخر مداه لتثبت أنك تأملت.

وهو عليم؛ يعلم ما في قلبك، ويعلم ما فعله الآخر، ويعلم ما لم تستطع أن تشرحه. كم من خصومة ينهك فيها الإنسان نفسه وهو يحاول أن يجعل الآخرين يفهمون روايته، ثم لا يستطيع. لكن المؤمن يعرف أن هناك علماً لا يحتاج إلى شرح مطول. الله يعلم القصة كاملة بلا نقص. وهذه المعرفة تمنحك مساحة لأن تكون أهدأ. ليس كل حق يحتاج أن تدافع عنه أمام كل إنسان، ولا كل سوء فهم يحتاج معركة. يكفي في بعض المواطن أن تعرف أن الله يعلم.

من إصلاح الخصومة إلى إصلاح القلب إن أعظم ثمرة لهذه الآيات قد لا تكون أن يتحول خصمك إلى صديق، بل أن تتحول أنت إلى إنسان أصفى. قد لا يتغير الآخر، لكنك أنت لا تبقى كما كنت. نتعلم ضبط اللسان، ونتعلم الفصل بين الحق والنفس، وتكتشف كم كان كبرياؤك يشارك في خصومات ظننت أنك مظلوم فيها بالكامل. فالخصومة مرآة. تكشف فينا أشياء لا تظهر في أيام الهدوء. نحن جميعاً نبدو حلماً حين لا يستفزنا أحد، ومتواضعين حين لا ينافسنا أحد، ومتسامحين حين لا يجرحنا أحد. الامتحان الحقيقي يبدأ حين تقع اليد على الموضع الحساس. ومن هنا يمكن أن تصبح العداوات نفسها مدرسة تربية، لا لأننا نجبها، بل لأننا نخرج منها أكثر معرفة بأنفسنا. من الذي يحركني؟ ماذا أكره حقاً؟ لماذا تؤلني كلمة دون أخرى؟ هل غضبي كله لله أم دخلت فيه نفسي؟ هل أريد إصلاح الخطأ أم إذلال صاحبه؟

هذه الأسئلة شاقة، لكنها تصنع صدقاً داخلياً.

حين يكون الانتصار الحقيقي ألا تهزم من الداخل

قد يهزمك إنسان في موقف، ولا تكون مهزوماً. وقد تنتصر عليه ظاهراً وتخرج مهزوماً من الداخل. معيار القرآن أعمق من النتيجة السريعة. إذا حفظت دينك وأخلاقك وقلبك، لم يأخذ خصمك منك أعظم ما تملك. أما إذا أجبرك غضبك أن تقول ما لا يرضي الله، فقد دفعك الآخر إلى خسارة لم يكن يستطيع فرضها عليك لولا أنك سلمته المفتاح. ولهذا كانت القوة الأخلاقية واحدة من أعظم صور التحرر. أن تكون قادراً على الرد، ثم تختار الرد الذي يرضي الله، لا الرد الذي يرضي لحظة الغضب.

«لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ»: معركة الوحي مع الضجيج
إذا كانت العداوة تحاول أن تخرج المؤمن من اتزانه، فإن الضجيج يحاول أن يمنع الوحي أصلاً من الوصول إلى القلب. وفي سورة فصلت تأتي واحدة من أكثر العبارات كشفاً لاستراتيجية الباطل: «لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ». لم تكن المعركة هنا مع معنى واحد في القرآن، بل مع فعل السماع نفسه؛ لأنهم أدركوا أن للكلام قوة إذا ترك يصل صافياً إلى الفطرة. ومن هنا تبدأ رحلة أخرى في السورة: كيف يخاف الباطل من لحظة إنصات، وكيف يصنع الضجيج حاجزاً بين الإنسان والحقيقة، وكيف يصبح حفظ الانتباه من أعظم أعمال القلب.

إن من اللافت أن خصوم القرآن لم يقولوا: ناقشوه حتى تبطلوا حججه. بل قالوا: «لَا تَسْمَعُوا». وهذه الجملة وحدها تكشف خوفاً دفيناً من قوة النص. فلا لا يخشى أثره لا يحتاج أحد إلى منع الناس من سماعه. لكنهم أدركوا أن القرآن إذا دخل الأذن دون تشويش ربما وجد طريقه إلى موضع أعمق من الجدل، وربما أيقظ شيئاً في الفطرة لا يستطيع المكابر بعده أن يعود كما كان.

ثم قالوا: «وَالْغَوَا فِيهِ». والغلو ليس حجة، بل ضوضاء. صوت يعلو على صوت، وتشويش يقطع المعنى، وحركة تمنع السكون الذي يحتاجه القلب ليلتقط الحقيقة. وهنا تبدو الآية أوسع من لحظتها التاريخية؛ لأن الغلو لم يعد يحتاج اليوم إلى قوم يقفون حول قارئ القرآن ويرفعون أصواتهم. يمكن أن يصنعه جهاز صغير، أو زحام دائم من الأخبار، أو تدفق لا ينتهي من المقاطع والصور والتنبيهات، حتى يبقى الإنسان في حالة استقبال متصلة لا تسمح للمعنى واحد أن يستقر.

كم من آية دخلت الأذن ثم خرجت منها قبل أن تبلغ القلب، لا لأن الآية ضعيفة، بل لأن النفس لم تمنحها زمناً كافياً. وكمن إنسان يقرأ القرآن بينما جزء من وعيه ينتظر إشعاراً جديداً، أو فكرة أخرى، أو صوتاً آخر. وقد يكون هذا من أخفى أنواع الحرمان: أن يكون القرآن بين يديك، لكنك لا تمنحه كامل حضورك.

إن السماع في القرآن ليس عمل الأذن وحدها. الأذن قد تستقبل الصوت، لكن السماع الذي يريده الوحي هو أن يسمح القلب للمعنى أن يدخل. ولهذا قال في أول السورة: «فَاعْرَضْ أَكْثَرَهُمْ فهُمْ لَا يَسْمَعُونَ». هم يسمعون من جهة الحس، ولكن الإعراض

أفسد ثمرة السماع. وكأن القرآن يقول: قد تكون لك أذنان سليمتان، ومع ذلك تكون في ميزان المعنى من الذين لا يسمعون.

حين يصبح الضجيج وسيلةً لحماية الوهم الباطل لا يعيش دائماً لأنه أقوى، بل لأنه يمنع الأسئلة التي قد تهدمه. كثير من الأوهام لا تصمد أمام تأمل هادئ؛ ولهذا تحتاج إلى حركة مستمرة حولها. تحتاج إلى أصوات تؤكدكها، وإلى تكرار يجعلها مألوفة، وإلى خوف من الصمت؛ لأن الصمت يمنح الإنسان فرصة أن يسمع نفسه، ومن يسمع نفسه ربما يبدأ في السؤال. والقرآن بطبيعته يفتح أسئلة كبيرة. من أنت؟ من أين جئت؟ إلى أين تمضي؟ لماذا تعيش؟ ماذا تعبد فعلاً؟ ما الذي يملك خوفك؟ ما الذي يملك حبك؟ ما الذي ستأخذه معك حين تموت؟ وهذه أسئلة مزججة لمن بنى حياته كلها على الهرب منها. ولهذا قد يكون الانشغال المفرط أحياناً وسيلة دفاع نفسي أكثر منه نمط حياة. يملأ الإنسان يومه لأنه لا يريد أن يبقى وحده مع الأسئلة. ينام على صوت، ويستيقظ على صوت، وينتقل من شاشة إلى أخرى، حتى لا توجد لحظة فراغ يدخل منها معنى ثقيل.

لكن القرآن لا يريد منك أن تخاف من الفراغ. بل ربما كان بعض الفراغ شرطاً للامتلاء الحقيقي. لا يدخل المعنى إلى قلب مزدحم بكل شيء. لماذا يحتاج القرآن إلى الإنصات؟ ليس لأن كلام الله ضعيف يحتاج إلى بيئة مثالية حتى يعيش، بل لأن الإنسان هو الضعيف. الانتباه مورد محدود، وإذا وزعته على عشرات الأشياء في اللحظة نفسها لم يبق شيء حقه كاملاً. والقرآن ليس من جنس المحتوى الذي يكفي أن يمر أمام العين لكي يؤدي أثره؛ إنه يريد إقامة. بعض الآيات تحتاج أن تُقرأ مرة، ثم تسكت بعدها. وبعضها لا يفتح معناه إلا إذا عدت إليها في اليوم نفسه مرات. وبعضها لا يكشف لك وجهه إلا حين تمر بحادثة تجعل الكلمة فجأة حياة. ولهذا كان التدبر ضد الاستهلاك السريع. لا تسأل دائماً: كم قرأت؟ اسأل أحياناً: كم بقي مما قرأت؟ كم آية حملتها معك بعد إغلاق المصحف؟ كم معنى أعاد ترتيب شيء فيك؟

إن القراءة التي لا تترك أثراً ليست عديمة القيمة، لكن القرآن يريد أكثر من المرور. يريد صحبة.

«والغوا فيه»: حين يكون الهدف ألا يكتمل المعنى

الضجيج لا يحتاج أن يمنعك من سماع الجملة كلها؛ يكفيك أن يقطع تسلسلها. لأن المعنى القرآني كثيراً ما يتشكل من علاقة الآية بما قبلها وما بعدها. إذا فصلت الكلمات عن سياقها، أو أخذت منها شطراً وتركت الباقي، أمكن تحويل الهداية إلى مادة للخصومة. ولهذا فإن من صور اللغو الحديثة أيضاً أن يُقطع القرآن من بنائه ليستخدم كشعار سريع في جدل لا يريد فهمه. آية تُرمى في خصومة، وآية تُستخدم لمجرد إحراج الآخر، وآية تُسحب من سياقها حتى تفقد سمتها الهدائي. القرآن لم ينزل ليكون ذخيرة في نزاعات الأنا، بل ليحكم الأنا نفسها. ومن هنا فإن أخطر ما يمكن أن يحدث للقارئ ليس فقط أن يترك القرآن، بل أن يبقيه معه بطريقة لا تسمح له بأن يصححه. أن يستخدمه دائماً على الآخرين، ولا يسمح له أن يعود إليه هو.

السماع الذي يُسقط المسافات

في موضع آخر من السورة قال تعالى عن المعرضين: ﴿أَوَلَيْكَ ينادون من مكان بعيد﴾. التعبير شديد الجمال. الصوت موجود، لكن هناك بعداً، والبعد هنا ليس بالضرورة مسافة مكانية، بل مسافة روحية ونفسية. قد يكون المصحف قريباً جداً من الجسد، والإنسان بعيداً جداً عن معناه.

القرب الحقيقي من القرآن لا يقاس بعدد النسخ التي تملكها، ولا بكثرة الآيات التي تحفظها وحدها، بل بمدى قرب الخطاب من قرارك. هل إذا سمعت ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ دخلت الآية إلى خصوماتك؟ هل إذا سمعت ﴿ألا تخافوا ولا تحزنوا﴾ دخلت إلى مخاوفك؟ هل إذا سمعت ﴿إنه بكل شيء محيط﴾ دخلت إلى لحظة وحدتك؟

حين يصل القرآن إلى مواضع الحياة هذه، تكون المسافة قد قصرت.

من يسمع القرآن لا يبقى كما كان

إن النصوص البشرية قد تمنحك معلومة أو متعة، أما القرآن فيطالبك بتغيير موضعك. ولهذا كان السماع الحقيقي خطيراً على النسخة القديمة منك. قد يجعلك تعتذر بعد أن كنت مصرّاً، أو تترك شيئاً تحبه، أو تراجع فكرة عشت عليها سنوات، أو تعيد حقاً إلى صاحبه، أو تضع حداً لمعصية ألفتها. وهذا يفسر لماذا قد يقاوم الإنسان التدبر أحياناً دون أن يعترف، إنه يعرف في مكان ما من نفسه أن الفهم الحقيقي سيضعه أمام تكليف. هناك فرق بين أن تعرف معنى الآية، وأن تسمح للآية أن تعرفك. في الأولى أنت تفحص النص. وفي الثانية النص يفحصك. وهذا هو الموضع الذي يصبح فيه القرآن مرآة.

الصوت الذي لا يحتاج إلى الصراخ

من اللافت أن الباطل قال: ﴿وَالْعَوَّا فِيهِ﴾. رفع الصوت أمام القرآن. وكأن أحد وجوه الفرق بين الحق والباطل أن الباطل كثيراً ما يحتاج إلى ضوضاء إضافية، أما الحق فيحتاج إلى أن يُترك يتكلم.

القرآن لا يطلب من قارئه أن يصنع حوله هالة مصطنعة. إن جماله في ذاته، ونظمه في ذاته، وحجته في ذاته. وما يحتاجه هو قلب غير مشغول عن سماعه. ولهذا فإن من خدمة القرآن أحياناً أن تحسن تقديمه دون أن تحجب صوته بكثرة كلامك عنه. قد نشرح حتى يضيع الأصل بين الشروح، ونعلق حتى تصبح كلماتنا أعلى من الآية. والتدبر الأجل هو الذي يقود القارئ في النهاية إلى النص، لا الذي يجعله مكتئباً بكلام الكاتب عنه. كيف يحجي الإنسان قلبه من اللغو؟ لا يحتاج الأمر إلى عزلة عن العالم، بل إلى إعادة ترتيب الانتباه. أن يكون للقرآن وقت لا يزاحمه فيه شيء. أن تقرأ والهاتف بعيد. أن تترك لنفسك بعد الآية لحظة صمت. أن تختار مقطعاً صغيراً وتعود إليه بدل الانتقال المستمر. والأهم أن يدخل القرآن إلى يومك بعد القراءة. خذ معك آية واحدة. اجعلها تسير معك في ساعات العمل، وفي الطريق، وفي لقاءاتك. دعها تراقب ردود أفعالك.

بهذه الطريقة يتحول القرآن من كتاب يُفتح وقتاً ويغلق وقتاً إلى رفيق يشاركك تفسير الحياة. لماذا كان «الغلبة» هي الغاية؟

قالوا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. وهذا يكشف أن علاقتهم بالقرآن تحولت من سؤال: ما الحق؟ إلى سؤال: من سينتصر؟

وهذه لحظة خطيرة في كل حوار. حين تصبح الغاية الغلبة، يفقد الإنسان قدرته على استقبال الحقيقة من خصمه؛ لأن الاعتراف بها سيبدو هزيمة. قد تعرف أن الآخر أصاب في نقطة، لكنك ترفض الإقرار بها لأنك تخاف أن يخسر موقفك شيئاً. وهكذا تتحول الحقيقة إلى ضحية لحب الانتصار. أما طالب الحق فيزانه مختلف. إذا ظهرت الحقيقة على لسان خصمه قبلها؛ لأن هدفه لم يكن أن ينتصر هو، بل أن ينتصر الحق. وهذا مقام عزيز في زمن الجدل. كثير من الناس لا يدخلون النقاش ليعرفوا، بل ليؤكدوا ما يعرفونه مسبقاً. ولا يسمعون ليجيبوا الحقيقة، بل ليسمعوا الثغرة التي يمكن الرد عليها. والقرآن يربي على السماع قبل الرد.

حين يكون الإنصات فعل شجاعة

الإنصات ليس حياداً بارداً. أحياناً يحتاج شجاعة؛ لأنك حين تنصت بصدق تترك احتمالاً أن يتغير شيء فيك. والإنسان يحب الثبات على صورته، حتى لو كانت ناقصة. يريد أن يكون هو نفسه غداً كما هو اليوم. لكن الوحي لا يأتي ليحفظك كما أنت. يأتي ليخرجك من نقصك. ولهذا فإن أقرب الناس إلى القرآن ليسوا الذين لا يتغيرون، بل الذين تسمح لهم الآيات أن يعيدوا النظر في أنفسهم باستمرار. كلما دخلوا إليه خرجوا بشيء جديد يحتاج إصلاحاً.

«شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ»: حين يتحول الجسد إلى سجل حي بعد أن تكشف السورة عن قوم حاولوا تعطيل السماع بقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لَهُذَا الْقُرْآنِ﴾، تنقلنا بعد ذلك إلى مفارقة مزلة: الأذن التي رفضوا أن يسمعوها الوحي ستتكم يوم القيامة، والعين التي نظرت حيث شئت ستشهد، والجلد الذي ظنوه صامتاً سيخرج ما خزنه. هنا تبلغ السورة ذروة من ذرى البيان؛ لأن الإنسان الذي حاول إسكات الحقيقة في الدنيا يكتشف في الآخرة أن كل شيء من حوله، بل كل شيء فيه، قد صار ناطقاً بها. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ليست المفاجأة فقط في أن الجوارح تشهد، بل في أن الإنسان يفقد فجأة احتكاره للرواية. في الدنيا كان يستطيع أن يعيد صياغة قصته كما يشاء، وأن يحذف منها ما يخرجه، وأن يجعل ما يشينه، وأن يقدم نفسه للناس في الصورة التي يحب. أما هناك فلا يملك النص وحده؛ فالجسد يدخل إلى المشهد شاهداً مستقلاً.

وهنا تتغير علاقتنا بفكرة «الخصوصية» من أصلها. ما نظنه أكثر الأشياء خصوصية، وهو الجسد، ليس خارج سلطان الله، ولا خارج دائرة الشهادة. العين ليست ملكاً مطلقاً، والأذن ليست ملكاً مطلقاً، والجلد ليس ملكاً مطلقاً؛ كلها أمانات تعمل تحت سلطان خالقها، ثم تعود إليه. إنك حين تنظر بعينك إلى ما لا يرضي الله، قد تتعامل مع النظرة كأنها شيء انتهى بمجرد أن انصرف بصرك. لكن الآية تقول لك: لم تنته. لقد دخلت في سجل حي. وحين تسمع ما لا يليق، قد تظن أن الصوت تلاشى في الهواء؛ لكنه في ميزان الآخرة لم يتلاش. وحين تتحرك جوارحك في فعل، فإن الجسد نفسه يحفظ آثار هذه الحركة. وهذا يجعل اللحظة الإنسانية أثقل مما تتصور. نحن لا نمر في الزمن مروراً فارغاً، بل نترك وراءنا آثاراً، وبعض هذه الآثار محفوظة فينا.

حين يصدم الإنسان من جسده قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾. يا للعجب من السؤال. كأنهم كانوا يتوقعون من أجسادهم الولاء لهم حتى في مواجهة الحقيقة. كيف تشهد علي وأنت مني؟ كيف تصبح الأداة التي كنت أستخدمها طرفاً ضدي؟

لكن هنا ينكشف الوهم القديم: الجسد لم يكن يوماً شريكاً للإنسان في الملك المطلق، بل كان مخلوقاً لله مسخراً له مدة من الزمن. وحين ينتهي التكليف وتبدأ الشهادة، يعود كل شيء إلى أصله.

وتأتي الإجابة: «أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ». هذه الجملة وحدها تهدم كل استغراب. من منح اللسان قدرته على الكلام قادر أن يمنح الجلد الكلام. ومن خلق جهاز السمع قادر أن يجعله شاهداً. ومن أوجد الحياة أول مرة لا يعجزه أن يغير وظائف الأشياء يوم القيامة.

وفي التعبير أيضاً رد خفي على من قاس قدرة الله على ما ألفه هو. الإنسان يقول: الجلد لا يتكلم. والآية تقول: أنت لم تر كل ما يمكن أن يفعله الجلد بأمر الله. المألوف عندك ليس حداً للقدرة الإلهية.

الجسد الذي كان يطيعك سيطيع الله في الدنيا تقول لديك فتحركها، ولعينك فتنظر، ولسانك فيتكلم. تعيش إحساساً قوياً بأن هذه الأعضاء تحت أمرك. وهذا صحيح ضمن حدود خلقها الله، لكنه قد يصنع في النفس وهماً أعمق: أن الجسد لك على نحو نهائي. أما يوم القيامة فينقلب مركز الأمر. لا تعود أنت المتصرف الوحيد. إن الجسد الذي كان يستجيب لإرادتك يستجيب الآن لأمر خالقه، ويقول ما أمره أن يقول. وهذا يعلم الإنسان أن السيادة التي يشعر بها على بدنه سيادة مؤقتة. لقد أعطي جسده لينظر ماذا يفعل به، لا ليصبح الجسد قطعةً من ملك مستقل عن الله. وهنا يظهر معنى الأمانة بقوة. عينك أمانة، وسمعك أمانة، ولسانك أمانة، ويدك أمانة. وما دام الشيء أمانة، فالسؤال ليس: ماذا أريد أن أفعل به؟ فقط، بل: ماذا يريد صاحب الأمانة مني فيه؟

حين تكون الخطيئة استعمالاً خاطئاً للنعمة من هذه الزاوية تصبح المعصية شيئاً آخر أيضاً: إنها استخدام نعمة الله فيما لا يرضيه. البصر هبة، فإذا استعمل في الحرام صار الإنسان قد أخذ العطية ثم وجهها في غير مقصدها. واللسان هبة، فإذا استعمل في الأذى صار قد حمل أداة البيان إلى موضع الفساد. وهذا يزيد معنى التوبة عمقاً. أنت لا توب فقط من «خطأ» مجرد، بل تعيد النعمة إلى مقصدها. تعيد العين إلى الطهر، واللسان إلى الصدق، واليد إلى الخير، والأذن إلى ما يركبها. ولهذا فإن أجمل صور الشكر ليست الكلام وحده، بل الاستخدام الصحيح. شكر العين أن ترى

بها ما يرضي الله، وشكر العقل أن تفكر به في الحق، وشكر القدرة أن تحمل بها الضعيف، وشكر العلم أن تنفع به، وشكر البيان أن تجعل كلمتك باباً للخير لا سكيناً في الناس.

لماذا ذكر السمع والبصر والجلود؟ اختيار هذه الأعضاء ليس عابراً. السمع والبصر هما أكبر بوابتين يدخل منهما العالم إلى الإنسان. بهما تتشكل الصور والأفكار والمشاعر. وما يدخل منهما لا يبقى دائماً خارج القلب؛ قد يسكن فيه، ويتكرر، ثم يتحول إلى رغبة أو قرار. ولهذا فإن الحراسة الحقيقية للقلب تبدأ من بواباته. قد يشتكي إنسان من قسوة قلبه وهو طوال يومه يملأ عينيه بما يقسيه، وأذنيه بما يشوشه، ثم يتساءل لماذا لا يجد في الصلاة صفاء. إن القلب لا يعيش في غرفة معزولة؛ يتغذى باستمرار مما تستقبله الحواس. والجلود تمثل الجانب العملي الجسدي من الحياة. كأن المشهد كله يقول: ما دخل إليك وما خرج منك، ما رأيت وما سمعت وما فعلت، كله حاضر. وهذا يجعل التدين أوسع من أفكار مجردة. الدين ليس ما تؤمن به في عقلك فقط، بل أيضاً ما تسمح له بالدخول من عينك وأذنك، وما يخرج بعد ذلك من حركتك.

الذاكرة التي لا تحتاج إلى قلم

في الدنيا نحفظ التاريخ بالكتب والصور والوثائق. أما هنا فالتاريخ محفوظ في الإنسان نفسه. وكأن الجسد ذاكرة من نوع آخر. لا نعرف كيفيتها، لكن الوحي يقرر حقيقتها: سيشهد. وهذا يغير معنى الماضي. الماضي ليس منطقة آمنة انتهت لأن الزمن عبرها. في ميزان الله لا يضع شيء. ما دام لم يُمحَ بالتوبة والمغفرة، فهو داخل الحساب. وهنا يأتي الأمل العظيم أيضاً: إذا كانت الجوارح تحفظ الخطيئة، فالله الذي يعلم الخطيئة يعلم التوبة كذلك. لا ينبغي أن تتحول هذه الآيات إلى باب يأس. إنها باب يقظة. فالذي يعرف خطورة ما سجل عليه هو أقدر على أن يعود، والله هو الغفور الرحيم. وكم من إنسان له ماضٍ مثقل، ثم غسله الله بتوبة صدقت. ليست العبرة أن لا يكون لك تاريخ نقص، فهذا شأن البشر، بل أن لا تصر على النقص حتى يصبح هو عنوانك الأخير.

«وما كنتم تستترون:» الخلوۃ التي لم تكن خلوة

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنَّ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾. كان الإنسان ربما يستتر من الناس؛ يغلق باباً، ويطفى ضوءاً، ويتبعد عن الأعين. لكنه لم يخطر له أن جسده نفسه سيشهد.

وهذا يجعل الخلوة موضعاً عجيباً لاختبار الإيمان. في العلن قد يمنعك الناس من أشياء كثيرة، لكن في الخلوة لا يبقى إلا ما في قلبك من علم الله وهيبته. ولهذا كانت الطاعة في السر ذات معنى عظيم، كما كانت المعصية في السر ذات دلالة خطيرة. لأن الخلوة تكشف بصورة أنقى: من الذي تراقبه حقاً؟ ليس من العدل مع النفس أن نجعل خوف الناس أقوى من استشعار نظر الله. فإذا استطعنا أن نترك الخطأ أمام البشر ولم نستطع تركه حين نغيب عنهم، فالمشكلة ليست في معرفة الحكم، بل في موضع الهيبة داخل القلب.

العقيدة التي تكشفها التصرفات

ثم يقول تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. قد يعترض إنسان

فيقول: ما قالوا بالسنتهم إن الله لا يعلم. لكن القرآن يكشف ما قالت أعمالهم.

وهنا من أعظم الدروس: لا تُقرأ عقيدتك من كلماتك وحدها، بل من طريقة حياتك. قد تقول إن الله يعلم كل شيء، لكن هل نتصرف في الخلوة على هذا الأساس؟ وقد تقول إنه الرزاق، لكن هل تنهار إذا ضعفت الأسباب؟ وقد تقول إنه أرحم بك، لكن هل تحسن الظن به إذا تأخر ما تريد؟ الأفعال تفضح مواضع الخلل في التصور. ولذلك فإن إصلاح السلوك لا يبدأ دائماً من الأمر والنهي فقط، بل من تصحيح معرفتك بالله. إذا امتلأ القلب بعلم الله، تغيرت الخلوة. وإذا امتلأ بحكمته، تغير استقبال القدر. وإذا امتلأ برحمته، تغير الرجاء. إن المعرفة بالله ليست ترفاً عقدياً، إنها مصدر مباشر للسلوك.

الظن الذي يصنع المصير

قال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. يا لها من

عبارة شديدة. «ظنكم بربكم» هو الذي أركم.

كأن الإنسان يبني حياته على صورة داخلية عن الله، ثم يمضي وفقها حتى يصير هذه الصورة جزءاً من مصيره. إذا ظنه بعيداً عاش بلا مراقبة، وإذا ظنه غير حكيم امتلأ اعتراضاً، وإذا ظنه لا يغفر وقع في القنوط، وإذا ظنه يغفر بلا توبة وقع في الأمن الكاذب. ولهذا كان حسن الظن بالله معنى منضبطاً بالوحي، لا أمنية مريحة تصنعها النفس. أن تحسن الظن به أن تعلم أنه أرحم بك من نفسك، وأن حكمه حق، ووعدته حق، ووعيده حق، وأن باب التوبة مفتوح، وأنه لا يظلم أحداً. أما أن تعصي ثم تقول: الله غفور، دون توبة ولا خوف، فليس هذا حسن ظن، بل غرور.

حين يكون أخطر شيء في الذنب ما يفعله بصورة الله في القلب

بعض الناس ينظر إلى الذنب بوصفه مجرد مخالفة تحتاج استغفاراً، لكن الذنب المتكرر قد يفعل شيئاً آخر: قد يعيد تشكيل تصور الإنسان عن الله حتى يستطيع أن يعيش معه. فالإنسان إذا أصر على معصية ربما بدأ يخفف في نفسه معنى العلم الإلهي، أو معنى الحساب، أو معنى حرمة الفعل، كي يستطيع أن يحتمل تناقضه. وهكذا لا يبقى الذنب في السلوك؛ يتسلل إلى التصور. ومن هنا كان التوبة المبكرة رحمة عظيمة. كلما أسرعت في الرجوع منعت الخطأ من أن يبني لنفسه فلسفة تبرره.

يوم تساوى الحقيقة مع الشهادة

في الدنيا قد تقع أشياء بلا شاهد بشري. كلمة قيلت في غرفة مغلقة، ونظرة لم يرها أحد، وفعل لم يؤثّق. وهنا تأتي عدالة الآخرة بمنطق مختلف: لا تحتاج الحقيقة دائماً إلى شاهد خارجك؛ أنت نفسك تحمل الشهود معك. وهذا يبعث الخوف، لكنه يبعث الطمأنينة أيضاً للمظلوم. كم من ظلم لم يره أحد! وكم من إساءة نفاها صاحبها! وكم من حقيقة ضاعت في محاكم البشر لغياب الدليل! عند الله لا تضيع. إن العدالة الإلهية لا تعتمد على نقص الوثائق البشرية. الجوارح تعلم. والأرض تعلم بأمر الله. والله فوق ذلك كله محيط بكل شيء.

«فَرَيْنُوا لَهُمْ»: كيف يبدأ الضلال حين تتغير أسماء الأشياء
بعد أن كشفت السورة أن الإنسان قد يسيء الظن بالله حتى يفسد عمله، تنتقل إلى عامل
آخر شديد الخفاء: القرناء الذين لا يحتاجون إلى حمل الإنسان على الشر بالقوة، بل يكفهم
أن يغيروا صورته في عينه. قال تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ﴾. وهنا ندخل إلى واحدة من أخطر ساحات الصراع: ليس الصراع على الفعل
وحده، بل على اللغة التي نصف بها الفعل، وعلى الاسم الذي نعطيه للخطأ، وعلى اللحظة التي
يصبح فيها المنكر جميلاً في العين قبل أن يتحول إلى عادة في الحياة.

«مَنْ أَشَدُّ مِنْ قُوَّةٍ»: حين تصبح النعمة حجاباً عن المنعم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْ قُوَّةٍ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُمْحَدُونَ﴾. هنا لا تصف السورة مجرد أمة قوية، بل تصف اللحظة التي تنقلب فيها القوة من نعمة إلى فتنة، ومن أداة إلى هوية، ومن سبب للشكر إلى مادة للاستعلاء. لم تكن المشكلة أنهم كانوا أقوياء؛ فالقوة في ذاتها ليست مذمومة، وإنما بدأت الكارثة حين لم يعودوا يرون في قوتهم أثراً من آثار فضل الله، بل رأوا فيها دليلاً على استقلالهم عنه.

إن النعمة تصبح خطراً حين تتجح في حجب المنعم. والمال يصبح فتنة حين يجعل صاحبه ينسى من رزقه، والعلم يصبح فتنة حين يقنع صاحبه أنه استغنى عن الوحي، والمنصب يصبح فتنة حين يضحخ الإنسان في عينه حتى يظن أنه أكبر من السؤال والمراجعة، والقوة تصبح فتنة حين لا يعود صاحبها يرى فوقه قوة.

ولهذا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنْ قُوَّةٍ﴾. إنها ليست جملة عابرة، بل إعلان عن نظام كامل من الوعي: نحن المقياس، ونحن القمة، ونحن الذين لا يُغلبون. وما إن يصل الإنسان أو الأمة إلى هذه النقطة حتى يبدأ السقوط من داخل القوة نفسها؛ لأن أول شروط استمرار النعمة أن يدرك صاحبها أنها ليست ذاتية ولا أبدية.

العجيب أن القرآن لا يجهيهم بقوة أخرى من جنس قوتهم، بل يعيدهم إلى أصلهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. لم يقل فقط: الله أقوى منهم، بل ذكرهم بأنه هو الذي خلقهم. وهذا أشد في تقويض الوهم؛ لأن الإنسان إذا تذكر أنه لم يصنع نفسه سقط جزء كبير من غروره بما يملك.

من أين جاءت هذه الأجساد القوية؟ ومن أين جاءت العقول؟ ومن أين جاءت الأرض التي حملتهم؟ ومن أين جاءت الموارد؟ ومن أين جاء الزمن الذي تمكنوا فيه من البناء والتوسع؟ كل ما دخل في تكوين القوة كان عطية سابقة عليهم. إن المتكبر بالقوة يشبه من يتباهى بهدية أمام صاحبها وينسى أنه تلقاها منه.

حين يبدأ الاستكبار من طريقة رؤية الذات قال تعالى: ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. الاستكبار قبل أن يكون سلوكاً سياسياً أو اجتماعياً هو صورة الإنسان عن نفسه. يبدأ من الداخل، حين تصبح «أنا» أكبر

من حقيقتها، ثم يخرج إلى الخارج في هيئة احتقار للآخرين، ورفض للنصيحة، وتعالٍ على الحق.

ولهذا فإن التواضع ليس مجرد لين في الكلام، بل معرفة دقيقة بالجم الحقيقي للإنسان. من عرف أنه مخلوق، وأن ما عنده عارية، وأنه سيموت، وأنه يحتاج إلى الله في كل نفس، صعب عليه أن يصدق وهم العظمة المطلقة. أما إذا نسي هذه الحقائق، بدأ يبحث عن دلائل على تفوقه: مال أكثر، جنود أكثر، نفوذ أكبر، جمهور أوسع، اسم أشهر، حتى تتحول الحياة إلى مشروع لإثبات الذات. والمشكلة أن الذات لا تشيع من هذا الإثبات؛ لأن صورتها إذا بنيت على المقارنة بالناس احتاجت دائماً إلى من يكون أدنى منها كي تشعر بالعلو. وهنا يولد الظلم. فلاستبكار لا يكفي بأن يقول: أنا قوي، بل يحتاج لاحقاً إلى أن يقول: إذن يحق لي ما لا يحق لغيري.

القوة التي لا تعرف حدودها تبدأ في التوحش كل قوة لا يحكمها معنى العبودية تميل إلى تجاوز حدودها. الإنسان حين يشعر أنه قادر، يحتاج إلى وازع أعلى من قدرته لينعه من تحويل الإمكان إلى استباحة. فليس السؤال الأخلاقي: هل أستطيع؟ بل: هل يجوز؟ وهذا فارق جوهري بين من تحكمه الشهوة بالقوة ومن يحكمه الوعي. الأول يرى القدرة مبرراً، والثاني يراها أمانة. قد تستطيع أن تظلم ضعيفاً، لكن قدرتك لا تمنحك الحق. وقد تستطيع أن تنتقم، لكن الإمكان ليس إذناً. وقد تستطيع أن تحتكر، أو تقصي، أو تختدع، أو تستغل، لكن وجود الوسيلة لا يحول الفعل إلى فضيلة. وهنا يأتي الوعي ليضع فوق القوة معياراً. ومن غير معيار أعلى، تتحول القوة إلى قانون ذاتها. لماذا قالوا: «مَنْ أَشَدُّ مَنًا»؟ في هذه العبارة بحث عن منافس. كأنهم يقيسون العالم بمنطق القوة وحدها: من الأقوى؟ من يملك الغلبة؟ من يستطيع أن يكسر الآخر؟

وهذا من أخطر صور الوعي حين تصبح القوة هي اللغة الوحيدة لفهم الحياة. عندئذ يختفي الحق، ويصبح السؤال ليس: من المصيب؟ بل: من الغالب؟ لكن القرآن يقلب الميزان. قد يكون الغالب في لحظة هو الخاسر في النهاية، وقد يكون الضعيف ظاهرياً هو صاحب المال الأعلى. لأن التاريخ لا يقف عند لقطة واحدة. وهنا ترينا السورة على ألا نخدع بمشهد القوة وهو في ذروته. كل قوة في الدنيا لها سقف، وكل صاحب سلطان له ساعة ينتهي فيها سلطانه، وكل بناء مهما ارتفع يقف تحت قانون الفناء. ولهذا فإن الإيمان لا يرهب من القوة كما يراها الناس، لأنه يراها داخل إطار أكبر.

الريح التي هدمت فلسفة القوة

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾. من أبلغ ما في القصة أن الأداة التي واجهت قوتهم لم تكن جيشاً أعظم منهم، بل ريحاً. شيء لا تستطيع اليد أن تمسكه، ولا تستطيع العضلات أن تصارعه.

وهنا تتكسر فلسفة «من أشد منا قوة» من أساسها؛ لأن الله لا يحتاج أن يهزمك بالطريقة التي تفهم بها القوة. قد يرسل شيئاً لا تحسب له حساباً، أو يسلب عنك عاملاً واحداً فتتهار منظومة كاملة. وهذه حقيقة تتكرر في حياة البشر: الإنسان قد يبني أمانه على شبكة واسعة من الأسباب، ثم يكفي أن يتغير سبب واحد لم يكن في حسابه حتى يتبدل كل شيء. إننا أضعف مما توهمنا النعمة أحياناً، والإيمان لا يذكّرنا بهذا ليزرع الذعر، بل لينع الغرور.

«عذاب الخزي»: لأن الكبرياء له عذابه الخاص

لم يقل فقط: عذاباً، بل ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ﴾. والخزي مناسب جداً لسياق الاستكبار؛ لأن المتكبر بنى صورته كلها على العلو، فإذا انكشفت هشاشته كان الألم مضاعفاً: ألم الهزيمة، وألم سقوط الصورة التي عبدها عن نفسه.

وهذا من السنن الدقيقة: أحياناً يعاقب الإنسان من جنس الباب الذي تكبر منه. من تكبر بعله قد يفضحه جهله، ومن تكبر بماله قد يذوق ذل الحاجة، ومن تكبر بجاهه قد يذوق الوحشة بعد انفضاض الناس عنه. وليس المقصود أن نجزم في كل واقعة بعقوبة معينة، فذلك إلى علم الله، لكن القرآن يعللنا أن الكبر يحمل في داخله بذرة خزيه؛ لأنه يبني صورة أكبر من حقيقة صاحبها، وكل صورة زائفة مهددة يوماً بالانكشاف.

الحضارة حين تنسى أنها عبدة

قصة عاد ليست قصة أفراد فقط، بل قصة قوة جماعية. وهذا يجعلها درساً في مصائر الحضارات. فالحضارة حين تتقدم في العلم والعمران والقدرة قد تقع في الخطأ نفسه: أن تحوّل ما وصلت إليه من أسباب إلى عقيدة في الاستغناء. تبدأ بقول: نحن نستطيع. ثم تتطور الجملة إلى: نحن لا نحتاج. ثم إلى: لا يوجد فوقنا معيار. وهنا تبدأ الأزمة. فالتقدم المادي لا يضمن نضجاً أخلاقياً. قد تستطيع أمة أن تبني ما يعجز عنه السابقون، لكنها تظل قادرة على الظلم نفسه، وربما بوسائل أشد تطوراً. وهذا هو السبب في أن الإنسان يحتاج إلى الوحي مهما تطورت أدواته؛ لأن المشكلة ليست في الأدوات وحدها، بل في اليد

التي تستخدمها والقيم التي تحكمها. العلم يضاعف القدرة، لكنه لا يقرر وحده أين ينبغي أن توجه.

القوة الحقيقية ليست أن لا تهزم

هناك وهم آخر تكسره السورة: أن القوة تعني ألا تمر بك الهزيمة. لكن حتى المؤمن قد يهزم في موقف، وقد يضعف، وقد يمرض، وقد يفقد. القوة الإيمانية ليست ضماناً لعدم الانكسار الخارجي، بل ضماناً لوجود معنى أعلى من الانكسار. قد يسلبك الناس شيئاً، ولا يستطيعون سلب يقينك إلا إذا سلمته لهم. وقد تنهزم في معركة ولا تنهزم في المبدأ. وقد تخرج من الدنيا قليل الحظ عند الناس، وتأتي يوم القيامة آمناً. وهنا يظهر الفارق بين ميزانين: ميزان الدنيا الذي يرى القوة في السيطرة، وميزان القرآن الذي يراها أيضاً في الثبات.

ثمود: الهداية التي رفضت لا التي غابت

بعد عاد تأتي ثمود لتكشف وجهاً آخر من الضلال. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾. إذا كانت مأساة عاد هي الغرور بالقوة، فمأساة ثمود هي الاختيار بعد البيان.

وهذه أشد. لأن الطريق ظهر. والهداية وصلت. لكنهم أحبوا العمى. إن التعبير لا يقول فقط إنهم ضلوا، بل يكشف ميلاً نفسياً: ﴿اسْتَحَبُّوا﴾. أي أن في العمى شيئاً وافق أهواءهم.

وهنا نتصل بثمود بما سبق من «التزين». فالإنسان لا يختار العمى غالباً وهو يراه عمى، بل بعد أن يتزين له. فإذا أحب ما يوافق هواه، صار الدليل الذي يخالفه مزججاً. وهكذا قد يصل الإنسان إلى مرحلة لا يسأل فيها: أين الحق؟ بل: أي تفسير يسمح لي أن أستمّر كما أنا؟ «فهديناهم»: إقامة الحجة رحمة

قول الله: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ يحمل رحمة عظيمة قبل أن يحمل معنى المسؤولية. الله لم يعاجلهم بالعقوبة قبل البيان، بل دلهم.

وهذه سنة رحيمة في الوحي: الطريق يُبين، والرسول تأتي، والآيات تتكرر، والإنذار يسبق العقوبة. إن الله لا يحب لعباده الضلال، ولذلك يرسل إليهم من العلامات ما يكفي لإيقاظهم. لكن الهداية التي تُعرض لا تنفع من أحب خلافتها. ومن هنا ندرك أن طلب الهداية ليس طلب معلومات فقط، بل طلب قلب يريد الحقيقة حتى إن خالفت هواه.

من العمى المختار إلى العذاب المهين

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. «الهون» يحمل معنى الذل. وكان السورة تعود مرة أخرى إلى مناسبة الجزاء لحالة الاستكبار والإعراض. ثم يقول: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. لم يكن ما وقع بهم اعتباطاً. أعمالهم دخلت في صناعة المصير.

وهذه من قواعد السورة المتكررة: الإنسان لا يعيش في عالم أخلاقي بلا نتائج. ما تفعله يتجاوز اللحظة. قد يتأخر الأثر، لكنه لا يعني أنه معدوم.

النجاة ليست جماعية بالاسم

ثم تأتي الجملة الهادئة وسط مشهد الهلاك: ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾. ما أجمل هذا الفصل بين المصائر. الأمة واحدة في المكان، لكن النهاية ليست واحدة.

وهذا يحرر الإنسان من ذوبانه الكامل في الجماعة. انتمائك لا ينحيك وحده، واسم البيئة لا يحمل عنك المسؤولية. في لحظة الفصل يعرف الله الأفراد. يعرف من آمن. ومن اتقى. ومن سار مع الجميع بلا سؤال. ولهذا لا يجوز للإنسان أن يجعل الجمهور عدراً أمام ضميره. قد تكون في مجتمع فاسد وتنجو، وقد تكون في بيئة صالحة وتهلك إذا لم يكن لك نصيب حقيقي من الإيمان.

«رَبُّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا»: حين تنقلب الصبحه في الآخرة إلى خصومة

بعد أن عرضت السورة القرناء وهم يزينون للإنسان الباطل في الدنيا، تكشف النهاية الحقيقية لهذه العلاقة يوم القيامة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾. وهنا ينهار الوهم كله؛ فالذي كان صوته محبوباً في الدنيا، والذي كان يزين المعصية ويخفف وقعها، يتحول في الآخرة إلى وجه يتننى صاحبه أن يراه لا ليشكره، بل ليضعه تحت قدميه. إنها لحظة تكشف أن كل صبحه لا تقود إلى الله تحمل في داخلها احتمال خصومة مؤجلة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾. هذه الآية لا تعرض مجرد مشهد انتقام، بل تكشف انقلاباً كاملاً في معنى الصبحه. في الدنيا كان المضل قريباً، محبوباً، مسموعاً، وربما بدا لصاحبه نصيراً ورفيقاً وخبيراً بالحياة، لكن الآخرة تسقط الأقنعة كلها. هناك لا تبقى الصداقة المبنية على الهوى صداقة، ولا يبقى الإعجاب إعجاباً، ولا يبقى التأثير امتناناً؛ بل يتحول كل ذلك إلى غضب ورغبة في التبرؤ.

إن أخطر ما في الصبحه أنها قد تعمل فيك ببطء حتى لا تعرف مقدار ما أخذت منها. ربما لم يأمرك أحد يوماً بترك الحق صراحة، لكنك مع الزمن بدأت ترى بعض الحق ثقیلاً، وبعض الباطل خفيفاً، وبعض المحرمات عادية، وبعض الطاعات مبالغه. وحين يحدث هذا تكون الصبحه قد تجاوزت مستوى الكلام إلى مستوى التكوين. ومن هنا نفهم لماذا يكون المضل في الآخرة موضع غضب شديد؛ لأنه لم يسلب من صاحبه شيئاً مادياً، بل شارك في تغيير بوصلته.

المضل لا يعمل وحده

قالوا: ﴿الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾. تجمع الآية بين نوعين من التأثير: وسوسة خفية، وتأثير بشري ظاهر. وهذا يكشف أن الإنسان يعيش داخل شبكة من المؤثرات، بعضها لا يراه، وبعضها يراه ويصاحبه ويتلقى عنه.

فالشیطان يوسوس، والإنسان قد يبرر، والبيئة قد تطبع، والجماعة قد تكرر، حتى يتشكل مسار كامل من الضلال لا يمكن رده إلى عامل واحد فقط. لكن القرآن مع ذلك لا يسقط مسؤولية الفرد. وجود المضل لا يلغي مسؤولية من تبعه. ولهذا لا ينفع التبرؤ في

الآخرة؛ لأن السؤال يبقى: لماذا قبلت؟ لماذا استجبت؟ لماذا سلمت قلبك؟ وهذا من عدل القرآن: لا يجعل الإنسان ضحية كاملة لبيئته، ولا يجعله مستقلاً عنها تماماً. يعترف بالتأثير، لكنه يبقى المسؤولية.

الصحة التي تبدأ بالإعجاب قد تنتهي بالحسرة كثير من العلاقات التي تؤثر في الإنسان تبدأ من الإعجاب. يعجب بأسلوب شخص، أو ثقته، أو جراته، أو حضوره، ثم يبدأ بعد ذلك في تقليده في تفاصيل صغيرة، ثم أكبر، حتى تسرب أفكاره إلى الداخل دون فحص كاف. ولهذا فإن الإعجاب يحتاج ميزاناً. ليس كل قوي يستحق أن يُتبع، ولا كل حاضر مؤثر صادق، ولا كل جميل العبارة سليم الطريق. السؤال الأهم ليس: كم يعجبني هذا الإنسان؟ بل: ماذا يصنع بي؟ هل يقربني من الله أم يزين لي البعد؟ هل يجعلني أكثر صدقاً أم أكثر تبريراً؟ هل يوقظ ضميري أم يخدره؟ هذه الأسئلة تنقذ الإنسان من وهم الصورة.

«نجعلهما تحت أقدامنا»: حين تتقلب مراتب الدنيا في الدنيا ربما كان المضل فوق صاحبه: قائدًا، أو مؤثراً، أو مرجعاً، أو صاحب كلمة نافذة. وفي الآخرة يريد التابع أن يجعله تحت قدميه. إنها صورة انقلاب المراتب. وهذا يكشف هشاشة المكانة التي لا تقوم على الحق. قد يعلو إنسان في أعين الناس، لكنه يهبط في ميزان الله. وقد يهشم إنسان في الدنيا، لكنه يأتي يوم القيامة في مقام أرفع. فالعلو الحقيقي لا يصنعه الجمهور، بل المال. ومن هنا لا ينبغي للإنسان أن يربط كرامته بمن رفعه الناس أو وضعوه. فالمراتب كلها ستعاد صياغتها هناك.

حين يتحول التأثير إلى مسؤولية ثقيلة هذه الآية لا تخاطب المتبوعين فقط، بل كل إنسان له قدرة على التأثير. الكلمة التي تقولها قد تصبح جزءاً من طريق غيرك. والنصيحة التي تقدمها، أو التبرير الذي تمنحه، أو التطبيع مع الخطأ، قد يعيش بعدك. وهذا يجعل مسؤولية الكلمة ثقيلة. أن تزين لإنسان خطأه ليس أمراً هيناً. ربما يذهب هو بالفعل وتبقى أنت شريكاً في صناعة صورته داخله. ولهذا كان الدال على الخير في مقام عظيم، كما أن المضل يحمل وزراً شديداً. إن التأثير أمانة، لا امتياز فقط.

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ»: كيف يصنع اليقين إنساناً لا تهزه النهايات بعد أن تعرض السورة مشهد الخصومات والضلال والانقلاب في العلاقات، تنتقل فجأة إلى أجمل مواضعها طمأنينة: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا». كأنها تقول: وسط هذا العالم المتقلب، هناك كلمة إذا استقرت في القلب صنعت مركزاً لا تهزه التحولات؛ أن يكون الله ربك حقاً، لا في الاعتقاد المجرد فقط، بل في طريقة العيش كلها. قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا». هذه الجملة من أكثر جمل السورة كثافة؛ لأنها تختصر مسيرة إنسان كاملة في كلمتين كبيرتين: قول يعلن الحقيقة، واستقامة تثبت أن الحقيقة لم تبق حبيسة اللسان. ليس الإيمان هنا فكرة عابرة، بل محور تنتظم حوله الحياة كلها. أن تقول «ربنا الله» يعني أن يكون الله هو المرجع الأعلى الذي تعود إليه حين تضطرب الأشياء، وأن تكون الاستقامة هي الشكل العملي لهذا الاعتراف. «ربنا الله» ليست عبارة تقال في حالة الصفاء فقط، بل تُحْتَبَر في أشد اللحظات قسوة. حين يضيق الرزق: ربنا الله. حين يتأخر الفرج: ربنا الله. حين تتكاثر الأسباب المخيفة: ربنا الله. حين لا يفهم الإنسان الحكمة من بعض ما يجري: ربنا الله. وحين تفتح الدنيا أبوابها كذلك: ربنا الله. ليست العبودية صدقاً إذا ظهرت فقط في الضيق ثم تلاشت في السعة، أو ظهرت في المسجد واختفت عند المصالح. إن الإيمان الحقيقي يغير مركز الثقل داخل الإنسان؛ فلا يصبح الخارج قادراً على التحكم فيه بالكامل. قد تهتز حياته، لكن لا ينهار مرجعه. قد تتغير الظروف، لكن لا يتغير ربه. من «قالوا» إلى «استقاموا»

القول سهل نسبياً، أما الاستقامة فهي الجزء الذي يكشف صدق القول. ولهذا لم تقف الآية عند الاعتراف، بل انتقلت إلى الحركة: «ثُمَّ اسْتَقَامُوا». كأن القرآن يقول إن العقيدة لا تكتمل جمالاً حتى تمشي على الأرض في هيئة سلوك. الاستقامة هي أن تصير «ربنا الله» جواباً لا بالشفتين فقط، بل بالفعل. فإذا عرضت عليك معصية، ظهر معنى ربوبية الله في قرارك. وإذا ظلمك أحد، ظهر في طريقته في الرد. وإذا جاءك مال، ظهر في نظرتك إلى النعمة. وإذا فقدت شيئاً، ظهر في طريقة احتمالك للفقْد. إنها ترجمة مستمرة. ومن هنا نفهم أن الإيمان ليس مناسبة وجدانية، بل نظام حياة. ربما

تدمع عين الإنسان عند آية ثم يظل سلوكه كما هو؛ هذه الدموع لها قيمتها، لكنها ليست غاية الطريق. الغاية أن تتحول الرقة إلى استقامة، والخشوع إلى أثر، والمعرفة إلى اختيار. الاستقامة لا تعني انعدام السقوط

قد يتوهم بعض الناس أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ يرسم صورة لإنسان لا يضعف ولا يتعثر. لكن طبيعة البشر ليست كذلك. الاستقامة لا تعني العصمة، بل تعني بقاء الاتجاه. قد يزل الإنسان، لكنه لا يغيّر وجهته. يخطئ ثم يعود، يضعف ثم يستغفر، يتأخر ثم يستدرك.

وهذا فارق عظيم بين السقوط والانحراف. السقوط حادثة، أما الانحراف فاختيار طريق آخر. وقد يسقط مستقيم ثم يقوم، بينما يمشي منحرف بثبات في الاتجاه الخطأ. من هنا كانت التوبة جزءاً من الاستقامة لا تقيضاً لها. العبد الذي يرجع كلما أخطأ يحافظ على اتجاهه نحو الله، حتى لو كثرت عثراته. أما الذي يبرر خطأه ويعيد تعريفه حتى يطمئن إليه، فهناك يبدأ الخطر الحقيقي. لماذا جاءت «ثم»؟

في قوله: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ مسافة زمنية ونفسية. «ثم» تقول لك إن بين المعرفة والرسوخ طريقاً. قد تعرف الحق اليوم، لكن نفسك تحتاج إلى زمن حتى تتربى عليه. قد تؤمن بقيمة الصبر، ثم تأتيك التجربة التي تعلمك ماذا يعني الصبر فعلاً. وقد تعرف التوكل، ثم تواجه باباً يغلق في وجهك فتكتشف أن المعرفة شيء والاعتماد القلبي شيء آخر. الدين في جانب كبير منه انتقال متدرج من المفهوم إلى الحال. تقرأ عن الرضا، ثم تعيش قدرًا يحتاج الرضا. تقرأ عن العفو، ثم يقف أمامك من يستحق في نفسك الرد. تقرأ عن الإخلاص، ثم يأتيك المدح ويبدأ الامتحان. وهنا تتحول المعرفة من صفحة إلى تربية. ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يكتفي بكثرة ما يعرف؛ السؤال الأهم: ماذا صار من هذا العلم جزءاً من طبيعتي؟

حين تنزل الملائكة
قال تعالى: ﴿نَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.
بعد سنوات الاستقامة يأتي هذا المشهد الهادئ المهيّب. الإنسان الذي ربما عاش حياته مجاهداً بالخوف يسمع أخيراً: لا تخف. والذي حمل أحزاناً كثيرة يسمع: لا تحزن.
إنها لحظة تتغير فيها قوانين الشعور.

في الدنيا كان الخوف دائماً مرتبطاً بالمستقبل: ماذا سيحدث؟ كيف ستكون النهاية؟ هل سأنجو؟ أما في هذه اللحظة فإن الملائكة تسحب من المستقبل قدرته على التهديد: ﴿أَلَا تَخَافُوا﴾.

والحزن متعلق غالباً بالماضي: ما فقدناه، من غابوا، ما لم نستطع إصلاحه، الفرص التي مرت، الذنوب التي تؤلم الذاكرة. فيقال: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾. كأن المؤمن يدخل إلى الآخرة وقد تحرر من جهتي الزمن معاً. لا مستقبل يخيفه. ولا ماضٍ يجرحه.

ما أجمَل أن تكون أول أخبار الآخرة لك طمأنينة نقضي في الدنيا أعماراً طويلة نحاول تأمين أنفسنا. نبني البيوت، ونجمع المال، ونخطط، ونحسب المخاطر، ومع ذلك يبقى القلق. لأن كل أمان دنيوي محدود؛ المال قد يذهب، والصحة قد تتغير، والبيت قد يتركه صاحبه، والإنسان نفسه يعلم أنه راحل. أما هنا فالأمان من نوع آخر. ليس قائماً على سبب معرض للزوال، بل على وعد الله. ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ ليست مسكناً مؤقتاً، بل إعلان انتهاء عصر الخوف والحزن. وهذا يجعل الاستقامة في الدنيا تبدو في ضوء مختلف. كل مرة قاومت فيها نفسك، وكل شيء تركته لله، وكل ألم صبرت عليه، كان يمهّد لهذه اللحظة. ما كان يبدو خسارة صغيرة في الدنيا كان يُبنى به أمان هائل في الآخرة.

«وأبشروا»: البشارة التي تأتي بعد طول الانتظار قال تعالى: ﴿وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. في الدنيا كان المؤمن يسمع عن الجنة. يقرأ وصفها، ويتخيلها، ويعمل لها، لكنه لم يرها بعد. أما الآن فالوعد يتحول إلى استقبال. كأن كل «وعد» في الدنيا كان رسالة مؤجلة، ثم جاء وقت فتحها. وهنا تظهر قيمة الإيمان بالغيب. المؤمن عاش لشيء لم يره، وترك أشياء رآها من أجل شيء صدق به ولم يره. ثم يأتي اليوم الذي يتحول فيه الغيب إلى مشاهدة، والوعد إلى واقع. إن من أعظم اختبارات الإيمان أن تطيع بناء على وعد لم تلمسه بعد.

«نحن أولياؤكم»: الصحبة التي لا تنتهي عند القبر قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. ما أوسع هذه الكلمة. الإنسان يخاف الفقد، ومن أشد صور الفقد أن يفارق من يحب. لكن المؤمن هنا يخبر بصحبة تتجاوز الحدود التي تنتهي عندها الصحبات الأرضية.

في الدنيا يودع الناس بعضهم بعضاً عند القبر. مهما بلغ الحب، هناك لحظة يتوقف فيها الجميع. لكن عالم الغيب لا يتوقف عند هذه العتبة.
﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

فالمؤمن لا يدخل تلك الرحلة وحيداً كما قد يتخيل. هناك عناية، وبشارة، وولاية. وهذا يعيد تعريف الوحشة نفسها. قد يكون الإنسان قليل الصحبة في الدنيا، لكنه ليس متروكاً في ميزان الله.

حين تكون الجنة استجابةً لكل حرمان
قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَوْنَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾. في الدنيا يتعلم الإنسان أن ليس كل ما يشتهي يحصل عليه. بعض الأشياء بعيدة، وبعضها مستحيل، وبعضها يأتي ثم يزول. أما الجنة فهي عالم ينتهي فيه قانون الحرمان.
﴿مَا تَشْتَوْنَ أَنْفُسُكُمْ﴾.

تأمل كم تحمل النفس في حياتها من أشياء لم تقاها لأحد. رغبات صغيرة، وأمنيات انطفأت، وأحلام تجاوزها الزمن. هناك لا يبقى الإنسان محكوماً بضيق الإمكان. لكن الأجل أن الجنة ليست مجرد إشباع للرغبات؛ إنها قرب من الله ورضاه وأمنه، ثم تأتي بقية النعم في هذا السياق.

«نَزَلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ»: الجنة ليست ثمناً متكافئاً للعمل
قال تعالى: ﴿نَزَلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾. يختم المشهد بأسماء الرحمة والمغفرة. وكأن السورة تمنع الإنسان من أن يخرج من الحديث عن الاستقامة معجباً بعمله. نعم، استقاموا، وصبروا، وعملوا، لكن ما يستقبلهم في النهاية هو نزل من غفور رحيم.

فالعامل سبب، أما الفضل فن الله. وكم يحتاج القلب إلى هذا التوازن: يعمل بجد كأن النجاة متوقفة على صدقه، ثم لا يرى نفسه مستحقاً بذاته، بل مفتقراً إلى رحمة الله. وهكذا لا ينتج العمل كبراً، ولا ينتج الرجاء كسلاً.

بين أول السورة وهذا الموضع
بدأت السورة بقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وهنا نصل إلى: ﴿نَزَلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾. الرحمة في أول الطريق والرحمة في آخره. القرآن نفسه نزل من الرحمة ليقود الإنسان إلى مقام تنتهي فيه الرحلة بنزل من الرحيم.

وهذا التناسب من أجمل ما يمر في السورة. كأن الرحمة أرسلت لك الكتاب أولاً، ثم استقبلتك في النهاية. بين التنزيل والنُّزُل عمر كامل. والقرآن هو الطريق بينهما.

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا»: حين يصبح الكلام طريقاً إلى الله لا طريقاً إلى الذات

بعد أن تعرض السورة صورة المؤمن الذي استقام حتى استقبلته الملائكة، تنتقل إلى أثر آخر من آثار هذه الاستقامة: الكلمة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. وهنا تضع السورة ميزاناً بالغ الدقة لجمال الكلام؛ فليست أجمل الكلمات أكثرها زخرفة ولا أبلغها في لفت الأنظار إلى قائلها، بل أجملها ما كان جسراً يعبر الناس عليه إلى الله، ويصدقه عمل صاحبه، ويمنعه تواضعه من أن يجعل الدعوة إلى الله دعوة خفية إلى نفسه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. هذه الآية لا تمدح مجرد القدرة على الكلام، بل تضع للكلمة ميزاناً أخلاقياً وروحياً كاملاً. فليس كل كلام جميلاً لأنه مؤثر، ولا كل خطاب عظيماً لأنه يجذب الناس، ولا كل صوت يستحق أن يُسمع لأنه يملك البلاغة؛ إن أجمل القول ما أخذ السامع من القائل إلى الله، لا ما شدّه إلى القائل نفسه.

وهنا تكمن دقة التعبير: ﴿دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾. لم يقل: دعا إلى نفسه، ولا إلى جماعته، ولا إلى صورته، ولا إلى اسمه، ولا إلى انتصاره في أعين الناس. جهة الدعوة محددة بوضوح: إلى الله. وهذه الجهة هي التي تحفظ الكلمة من أن تتحول إلى مشروع ذاتي يستعمل الدين ليعين مكانة صاحبه.

إن أخطر ما يهدد الداعية أو الكاتب أو المتكلم عن الله أن تصبح الكلمة التي كان يريد بها هداية الناس وسيلة خفية لتوسيع ذاته. يبدأ الإنسان مخلصاً للمعنى، ثم يعجبه أثره في القلوب، ثم يبدأ ينتظر الثناء، ثم يراقب كم أعجب بكلامه، ثم يتحول مركز الاهتمام في داخله من: هل وصل الناس إلى الحق؟ إلى: هل رأوا أنا كيف قلت الحق؟ وهنا تتغير طبيعة الرسالة دون أن تتغير ألفاظها. قد يبقى الكلام عن الله، لكن القلب أصبح يتحدث عن نفسه.

ولهذا جاء بعد الدعوة مباشرة: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾. كأن القرآن يعلم أن أعظم ما يحمي الكلمة من الاستعراض أن يكون وراءها عمل يصدقها. فالكلمة التي لا تجد لها شاهداً في حياة صاحبها تظل ناقصة مهما بلغت من جمال الصياغة.

والناس قد ينسون كثيراً مما قلت، لكنهم يتذكرون التناقض بين قولك وفعلك أكثر مما تتصور.

حين يصبح العمل شرحاً للكلمة

﴿وَعَمِلْ صَالِحاً﴾ ليست جملة زائدة بعد الدعوة. إنها قلب الآية. لأن الداعي الحقيقي لا يشرح الدين بلسانه فقط، بل بهيئته. صدقه شرح. وعدله شرح. رحمته شرح. أمانته شرح. طريقته في الخصومة شرح.

وقد يكون موقف واحد من إنسان صادق أبلغ من عشرات الخطب. إن الكلام يقنع العقل، لكن السلوك يعطي الكلام شرعية الدخول إلى القلب. ولهذا كان من أخطر ما يفسد أثر الدعوة أن يرى الناس المدعو إليه جميلاً في الكلام، قبيحاً في صاحبه. هنا لا يضعف المتكلم وحده؛ ربما تتضرر صورة المعنى نفسه في أعين من لا يفرقون بين الدين وحامله. والآية تحمل الداعية مسؤولية شديدة: حين نتكلم باسم الحق، لا تجعل نفسك حجاباً عنه.

«إنني من المسلمين»: التواضع بعد رفعة الدعوة

ثم تأتي الجملة الأخيرة: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. تأمل هذه البساطة. لم يقل: أنا من الصفوة. ولا: أنا صاحب مقام خاص. ولا: أنا أعلى منكم لأنني أدعوكم. بل وضع نفسه داخل جماعة العبودية: من المسلمين.

هذا من أجمل ما يحفظ الداعية من تضخم الذات. كلما ازداد تأثيره، ازداد حاجته إلى أن يتذكر أنه عبد مثل غيره، يحتاج إلى الهداية التي يدعو الناس إليها، ويحتاج إلى المغفرة التي يحدّثهم عنها، ويخاف على قلبه كما يخاف عليهم. الداعية الذي ينسى أنه «من المسلمين» يبدأ ببطء في بناء طبقة فوقهم. يرى نفسه معلماً دائماً، ولا يسمح لنفسه أن يكون متعلماً. يصحح الجميع، ولا يراجع نفسه. يتحدث عن أمراض القلوب، لكنه يعني قلبه من التشخيص. أما هذه الآية فترده إلى الصف. أنت تدعو إلى الله، لكنك تمشي إلى الله معهم.

أجمل القول ليس أكثره زخرفة

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ تعيد تعريف البلاغة نفسها. نحن نميل إلى قياس جمال الكلام بحسن الصورة، وقوة العبارة، ونغامة الأسلوب، وهذه كلها أشياء لها قدرها، لكن القرآن يضع فوقها معياراً أعلى: إلى أين يأخذك القول؟

قد تكون الجملة فاتنةً لكنها تقود إلى باطل، فلا تكون حسنة في الميزان القرآني. وقد تكون العبارة بسيطة، لكنها تفتح قلباً على الله، فتكون من أحسن القول. وهذا يعلم الكاتب مسؤولية الجمال. البلاغة أمانة. إذا امتلك الإنسان القدرة على التأثير، صار مسؤولاً عن الوجهة التي يدفع الناس إليها بهذا التأثير. ليس المهم أن تقول كلاماً يبقى في الذاكرة فقط، بل أن يبقى أثره في الضمير.

الدعوة إلى الله لا تعني كثرة الكلام

قد يتصور الإنسان أن الدعوة لا تكون إلا بالحديث، لكن ترتيب الآية يوسع المعنى. الكلمة جزء، والعمل جزء. وربما كان صمتك في موطن غضب دعوة، وعدلك مع من تكره دعوة، وأمانتك في مكان ينتشر فيه الغش دعوة. أحياناً تدعو إلى الله حين ترفض أن تشبه بالظالم حتى في خصومتك معه. وأحياناً تدعو إليه حين تملك فرصة الانتقام ثم تختار العدل. وأحياناً حين يراك الناس في الضراء فلا يرون منك سوء ظن بالله. إن الحياة نفسها يمكن أن تصبح كلاماً بلا صوت. كيف تتحول الدعوة إلى صناعة صورة؟ النفوس دقيقة المكر. قد يبدأ الإنسان يريد الخير حقاً، ثم تدخل عليه رغبة خفية في أن يرى هو بوصفه صاحب الخير. والفرق قد لا يراه أحد إلا هو وربّه. ومن هنا كان الإخلاص مجاهدة مستمرة، لا حالة يُطمأن إليها مرة واحدة. كلما اتسع تأثيرك، اتسعت حاجتك إلى التفطيش عن دوافعك.

هل أحزن لأن الناس لم ينتفعوا، أم لأنهم لم يذكروا اسمي؟ هل أفرح لأن الحق ظهر، أم لأن ظهوره كان على لساني؟ هل يزعجني أن يقول غيري الفكرة نفسها أفضل مني؟ هذه أسئلة مؤلمة، لكنها تحمي الرسالة من أن تتحول إلى مرآة.

حين تصير الكلمة عبادة

الكلمة إذا قصد بها وجه الله تتحول من نشاط لغوي إلى عبادة. حرف قد يكون سبباً في هداية إنسان، أو تثبيت قلب، أو رفع شبهة، أو إيقاظ غافل. وهذا يمنح الكلمة والكلام معنى هائلاً. لكن كلما علت قيمة الكلمة عظمت مسؤوليتها. قد تبني بها وقد تهدم، وتجمع وقد تفرق، وتكشف الحق وقد تزين الباطل. ولهذا لا ينبغي لمن يملك البيان أن يستخف بحرفه. رب كلمة كتبها في لحظة غضب عاشت أكثر مما عاشت لحظة غضبك. ورب كلمة صدق كتبها بقلب حاضر بقيت تعمل بعد أن نسيت أنت أنك قلبها.

«لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ»: كيف ينتقل الإنسان من فتنة الجمال إلى معرفة الجميل بعد أن تربط السورة بين جمال القول وجهته، تعود مرة أخرى إلى جمال الكون نفسه لتؤسس قاعدة كبرى: ليس كل ما بهر قلبك يستحق أن يكون غايته. الشمس مبهرة، والقمر مهيّب، والليل والنهار من أعظم آيات الله، لكن القرآن يرفض أن يقف الإنسان عند روعة الأثر وينسى صانع الأثر. وهنا تبدأ رحلة جديدة في السورة: كيف يصير الجمال باباً إلى التوحيد، وكيف يتحول إذا انقطعت صلته بالخالق إلى حجاب، وكيف يتعلم المؤمن أن يمر من الأشياء إلى الله دون أن يعبد الأشياء في الطريق.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. هذه الآية لا تنهى عن عبادة الأجرام فحسب، بل تعلم الإنسان منهجاً كاملاً في النظر إلى الأشياء الباهرة: لا تجعل الجمال محطة نهائية، بل اجعله طريقاً. لا تقف عند النور، بل اسأل عن من أودعه. لا تستسلم لسحر الشيء حتى تنسى خالقه. فالكون في القرآن لا يريد أن يأسر بصرك لنفسه، بل أن يوقظه على من أبدعه.

الإنسان مفتون بطبيعته بما هو عظيم ولامع ومهيّب. ينظر إلى الشمس فيجد قوة ونوراً، وينظر إلى القمر فيجد هدوءاً وجمالاً، وربما يتسلل إلى النفس ميل خفي إلى تعظيم الأثر حتى يبتلع الأصل. ولهذا جاء التوحيد ليحرر الجمال من أن يتحول إلى صنم، ويحرر الإنسان من أن يتوقف عند المخلوق. كل جمال في الدنيا ناقل، لا مستقل. وكل عظمة فيها مستعارة، لا ذاتية. وكل قدرة فيها محدودة، لا مطلقة. فإذا رأيت شيئاً بهر قلبك، فاعلم أن انبهارك ليس نهاية المعرفة، بل بدايتها.

من الآية إلى صاحب الآية

القرآن يسمي الشمس والقمر والليل والنهار: ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾. والآية في أصل معناها علامة. والعلامة لا تطلب منك أن تسكن عندها، بل أن تعبر منها إلى ما تدل عليه. ومن هنا فالكون كله لغة.

الشمس كلمة. والقمر كلمة. والليل كلمة. والنهار كلمة. والمطر كلمة. والريبع كلمة. والبحر كلمة. وجسدك نفسه كلمة. والخطأ يبدأ حين تقرأ الكلمات وتنسى المتكلم. إن الإنسان قد يعجب بالنظام الكوني حتى ينشغل بالنظام عن المنظّم، أو بالجمال عن الجميل، أو بالعقل

عن واهب العقل. والقرآن يصحح المسار كل مرة: مر من الأشياء، ولا تسجن نفسك فيها. وهذا هو الفرق بين عين ترى الظاهرة وعين تقرأ الآية.

الجمال حين يصبح حجاباً

ليس كل انبهار هداية. قد ينبر الإنسان بالمال حتى ينسى من رزقه، وبالعلم حتى ينسى من علمه، وبالجسد حتى ينسى من صورته، وبالمكانة حتى ينسى من رفعه. الشيء نفسه قد يكون باباً إلى الله أو حجاباً عنه. الفرق في طريقة النظر. إذا قلت: ما أعظم هذا المخلوق، ثم توقفت، فقد يبتلعك الأثر. وإذا قلت: ما أعظم من خلقه، فقد تحول الجمال إلى عبادة. ولهذا كان المؤمن لا يقتل الجمال، بل يرده إلى مصدره.

الليل والنهار: آيتان لأنهما لا يتعبان من التكرار

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾. نعبّر خلاهما كل يوم حتى فقدنا القدرة على الدهشة. لكن القرآن يعيد إليهما المعنى.

كل مساء يغلق العالم بعض أبوابه. وكل صباح يفتحها من جديد. الظلمة تنزل، ثم تنقشع. والهدوء يأتي، ثم تعود الحركة. وهذا التكرار نفسه آية؛ لأنه منظم بصورة مذهلة حتى صرنا نتق به دون أن نفكر. نضع خططنا للغد لأننا نوقن أن الصباح سيأتي، وننام لأننا نعرف أن الليل له نهاية. لكن من الذي أعطى العالم هذا الانتظام؟ العادة لا تفسر النظام. هي فقط تجعلنا لا نراه. الشمس التي يستحيل أن تكون إلهاً الشمس عظيمة، لكنها مأمورة. تطلع وتغرب وفق نظام لا تصنعه هي. والقمر جميل، لكنه تابع لمسار. وهنا يختبر التوحيد العقل: هل يستحق العبادة من لا يملك الخروج عن قدره؟ هل يعبد الإنسان مخلوقاً هو نفسه محكوم؟

ولهذا قال: ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾. الحجة شديدة البساطة. لا تعبد الشيء، بل اعبد من أوجده.

وكثير من الانحرافات الفكرية يبدأ حين يتعامل الإنسان مع السبب كما لو كان مستقلاً. يرى أثراً قوياً في العالم، فيعطيه من الهيبة ما ينبغي ألا يكون إلا لله. لكن المؤمن يستعمل الأسباب ويحترم قوانينها، دون أن يحولها إلى أرباب صغيرة.

السجود: تصحيح للمسافة بين الإنسان والكون

حين يسجد الإنسان لله لا يضع نفسه تحت الشمس ولا تحت القمر، بل تحت رب الشمس والقمر. وهذا يحرره من الخضوع لأي شيء داخل العالم. فمن سجد لله حقاً لا

ينبغي أن يستعبد قلبه مال، ولا سلطان، ولا شهرة، ولا نظرة الناس. التوحيد ليس فقط
رفض صنم حجري، بل تحرير متواصل من كل ما يريد أن يحتل في القلب مقاماً أكبر من
حجمه.

«تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً»: حين تتحول الأرض إلى مرآة للقلب
 قال تعالى: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ
 الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. هنا تنتقل السورة من السماء إلى
 الأرض، ومن النور إلى التراب، لكنها لا تقل جمالاً. الأرض اليابسة توصف بأنها
 ﴿خَاشِعَةٌ﴾، ثم ينزل الماء فتتحرك بعد سكونها، وكأن الحياة كانت مستترة فيها تنتظر
 الإذن. والمشهد لا يثبت البعث فقط، بل يحمل إلى القلب رسالة شديدة القرب: ما دام
 الله يحيي الأرض بعد موتها، فلا تتعجل الحكم على الأشياء التي تبدو داخلك ميتة.
 قد يمر على الإنسان زمن يشعر فيه أن قلبه جف. الدعاء ثقيل، والدعوى بعيدة، والقرآن لا
 يهزه كما كان. فيظن أن شيئاً قد انتهى. لكن الأرض تقول له كل عام: ليس كل سكون
 موتاً نهائياً، وليس كل جفاف نهاية. قد يأتي الماء. وقد تكون آية واحدة هي الماء. وقد
 تكون توبة صادقة. وقد تكون مصيبة تهز الغفلة. وقد يكون خلوة طويلة مع الله. فالله الذي
 يحيي التراب قادر على إحياء القلب. لماذا قال «خاشعة»؟ الوصف بالغ الجمال، لأن الخشوع
 يوحى بالسكون والانخفاض. والأرض قبل المطر تبدو ساكنة مطرقة، ثم إذا نزل الماء
 انتفضت بالحياة. وكأن الآية تجعل من الأرض مشهداً تعبدياً. هي ساكنة تنتظر أمر الله.
 فإذا جاء، استجابت. ويستطيع الإنسان أن يرى في هذا درساً: بعض الفتوحات لا تأتي
 بالافتقار وحده، بل بالانتظار الصادق لأمر الله.

البعث ليس بعيداً عما يرى الربيع
 ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾. الحجة أمام العين. كل موسم يكرر الله للناس مشهداً
 مصغراً من الإحياء. التراب الميت يتحول إلى نبات، والأغصان العارية تمتلئ، واللون يعود
 بعد ذهاب.

فمن رأى الإحياء مراراً، لماذا يستبعد الإحياء الأكبر؟ إن استبعاد البعث كثيراً ما ينشأ
 من الاعتياد على صور الحياة. نحن نرى الولادة عادية لأننا ألفناها، مع أنها في ذاتها من
 أعجب الأشياء. الاعتياد لا يقلل من المعجزة، بل يقلل فقط من دهشتنا بها.

«لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ»: حين يقف القرآن خارج تقلبات العصور قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۖ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. بعد أن عرضت السورة آيات الكون، تعود إلى القرآن نفسه؛ فكأنها تقول إن الكتاب والكون كلاهما دالان على مصدر واحد. وهذا الكتاب وُصف بأنه ﴿عَزِيزٌ﴾، أي منيع الجانب، لا يعيش بقوة رضى الناس عنه، ولا تضعفه موجات السخرية، ولا تفنيه خصومات العصور.

تمر أزمئة يظن فيها قوم أن القرآن صار قديماً، ثم تمضي تلك الأزمنة ويبقى القرآن. تظهر أفكار تصنع ضيغاً هائلاً، ثم تذبل، وتبقى آيات كان الناس يسمعونها قبل قرون. في هذا شيء من معنى العزة. أن لا تكون حياة النص مرهونة بمزاج التاريخ.

الباطل لا يجد مدخلاً

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾. صورة إحاطة وحفظ. كأن الباطل يحاول الوصول من جهات متعددة، لكنه لا يجد مدخلاً يفسد به أصل الكتاب.

وهذا يطمئن المؤمن، لكنه يحمله أيضاً مسؤولية: إذا كان الكتاب عزيزاً في ذاته، فلا نقرأه بقلوب مهزوزة أمام كل موجة فكرية عابرة. نحاور، ونفهم، ونتعلم، لكن لا نحاكم الوحي إلى مزاج العصر. العصر نفسه متغير. أما الوحي فيزانه أعلى. من حكيم حميد

تختم الآية: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. الحكيم: الذي يضع الأشياء في مواضعها. والحميد: المستحق للحمد. وكأن كل تفصيل في هذا الكتاب صادر عن حكمة، وكل حكم فيه جدير بالحمد، ولو جهل الإنسان بعض وجوه حكمته.

وهنا نتصل البداية بالنهاية: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم هنا ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. رحمة، وحكمة، وحمد. هذه الأسماء الأربعة تكفي وحدها لتصنع طريقة قراءة كاملة للقرآن: اقرأ الأمر وأنت تعلم أنه نزل من رحيم، واقرأ الحكم وأنت تعلم أنه صدر عن حكيم، واقرأ الطريق وأنت تعلم أن الذي شرعه حميد.

«قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً»: القرآن حين يهدي الطريق ويعالج جراح المسير قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً﴾. جمع القرآن هنا بين حاجتين عظيمتين في الإنسان: أن يعرف أين يمضي، وأن يشفى مما أصابه وهو يمضي. الهدى للوجهة، والشفاء للداخل. فقد يعرف الإنسان الطريق، لكنه يحمل قلباً جريحاً لا يستطيع السير. وقد تكون لديه طاقة، لكنه يجهل الجهة. فجاء القرآن ليفعل الأمرين معاً: يضع خريطة، ويعالج المسافرين. والشفاء هنا أوسع من أن يُحتزل في معنى واحد؛ إنه شفاء من الشبهة حين يلتبس الحق، ومن مرض القلب حين يفسد القصد، ومن وحشة المعنى حين تضيق الحياة، ومن التيه حين تبعثر القيم. وما أكثر ما يكتشف الإنسان أن بعض جراحه لم تكن تحتاج زيادةً في الأشياء، بل زيادةً في المعنى. ولهذا قد يقرأ آية يعرفها منذ سنوات، ثم تأتي في ظرف جديد فتدخل إلى موضع لم تصل إليه من قبل. النص هو نفسه، لكن الجرح تغير، فظهر وجه من وجوه الشفاء لم يكن ظاهراً.

«يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ»: كيف يصنع الإعراض مسافات داخل القلب
قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْهُو عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ
بَعِيدٍ﴾. هذه من أجمل صور البعد النفسي في القرآن. الإنسان في المكان نفسه، والصوت
يصل إليه، لكنه كمن يُنادى من وراء مسافات. لأن البعد الحقيقي ليس دائماً بالأمتار،
بل بما تراكم بين القلب والحقيقة.

وقد تكون بينك وبين القرآن مسافة وأنت تمسك المصحف. وقد تكون قريباً منه وأنت بعيد
عن المكتبات كلها. المعيار هو أين يصل المعنى. إذا وصل إلى الخوف، وإلى القرار، وإلى
الخصومة، وإلى السر، وإلى المال، فقد اقترب. أما إذا ظل في الأذن فقط، فالمسافة قائمة.

القسم الثامن عشر

«مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ»: حين يكشف الإنسان أن كل طاعة عائدة إليه قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾. هذه الآية تهدم وهماً خفياً في العبادة: كأن الإنسان يقدم لله خدمة بطاعته. والحقيقة أن الله غني، والعبد هو المنتفع.

حين تصلي، فثمرة الصلاة عائدة إليك. وحين تتصدق، فأنت تبني لنفسك. وحين تكف لسانك، فأنت تحفظ قلبك وصحيفتك. وحين تعصي، لا تجرح ملك الله، بل تجرح نفسك. وهذا يجعل التكليف صورة من الرحمة لا من الاحتياج. الله لا يحتاج منك شيئاً. أنت الذي تحتاج إلى الطريق.

«إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ»: حين يجتمع أعظم الغيب وأدق التفاصيل في علم واحد قال تعالى: «إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ». تجمع الآية بين الساعة، وهي أعظم حدث ينتظر العالم، وبين ثمرة صغيرة تخرج من غلافها، وبين حمل في رحم لا يراه الناس. كل هذا داخل العلم نفسه. ما أعجب هذا الجمع. عنده علم نهاية الكون، وعنده علم الثمرة. لا تشغله الكليات عن الجزئيات. وهنا يجد القلب طمأنينة عجيبة: إذا كان يعلم خروج ثمرة من كمها، أفلا يعلم خوفًا خرج في قلبك ولم تنطق به؟ وإذا كان يعلم ما تحمل كل أنثى، أفلا يعلم ما تحمله أنت من هم؟ الإحاطة ليست رهبة فقط. إنها أمان.

«أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ»: حين تنتهي السورة ولا يبقى للإنسان مكان خارج علم الله قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾. هنا تصل السورة إلى آخر الحقيقة. كل المشاهد التي مرت بك كانت تقود إلى هذا الموضع: القرآن، والكون، والآفاق، والنفس، وشهادة الجوارح، ومصائر الأمم، والنعمة والضراء، كلها تقول إن الإنسان محاط بدلائل الله، ثم هو في النهاية محاط بعلم الله وقدرته ومملكه. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.

لا حدث خارج العلم. ولا دعة خارجه. ولا ظلم يضيع. ولا كلمة تسرب من الحساب. ولا خوف مجهول. ولا عبد يختفي. وإذا دخلت هذه الآية إلى القلب على وجهها الصحيح صنعت شيئين متقابلين في غاية الجمال: مراقبة وطمأنينة. تراقب لأنك لا تستطيع أن تختبئ. وتطمئن لأنك لا تستطيع أن تضيع.

وهذا من أجمل ما يمكن أن تنتهي به سورة بدأت بقول الله: ﴿تَنزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. فالذي أحاط بك علماً هو نفسه الرحمن الرحيم. وهنا يهدأ القلب. الإحاطة ليست إحاطة قوة مجردة فقط. بل إحاطة ربٍّ أنزل إليك كتاباً من رحمته، وفصل لك آياته، وأراك آياته في الآفاق وفي نفسك، ثم لم يتركك حتى أخبرك أن كل ما تخاف ضياعه عنده معلوم.

سورة فُصِّلَتْ بوصفها هندسةً كاملة للوحي؛ كيف تبدأ بالوحي، وتمر بالكون والتاريخ والنفس، ثم تنتهي باللقاء والإحاطة

حين تعود إلى سورة فُصِّلَتْ بعد هذه الرحلة الطويلة، تكتشف أن السورة لم تكن تجمع موضوعات متناثرة، بل كانت تبني وعياً كاملاً طبقةً بعد طبقة. تبدأ من أعلى مصدر للمعرفة: الوحي. ثم تنقل إلى الكون، ثم إلى التاريخ، ثم إلى النفس، ثم إلى الجوارح، ثم إلى المصير. وكأنها تريد أن تحاصر الإنسان بالحقيقة من كل جهة حتى لا يبقى له عذر في أن يقول: لم أر، أو لم أسمع، أو لم أعرف.

تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ تَنَزَّلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. البداية من فوق، من المصدر الذي لا يضل ولا ينسى. ثم يأتي التعريف بالكتاب: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾. فكان أول خطوة في بناء الوحي أن يعرف الإنسان أن هناك خطاباً من الله إليه، وأن هذا الخطاب ليس غامضاً في أصل هدايته، بل مفصل، مبين، موجه لقلب يريد أن يعلم. ثم لا تتركه السورة داخل صفحات الكتاب فقط، بل تفتح النافذة على العالم: الأرض، الجبال، الأقوات، السماء، النجوم، الليل، النهار، الشمس، القمر، المطر، إحياء الأرض. كأنها تقول: لا تقرأ الكتاب وحده، اقرأ معه العالم الذي خلقه منزل الكتاب. ثم تنتقل إلى التاريخ: عاد وثمود. لأن الإنسان قد يرى الطبيعة ولا يتعلم من مصائر البشر. فيأتي التاريخ شاهداً آخر: القوة إذا استكبرت سقطت، والهداية إذا رُفِضَتْ صارت الحجة أشد. ثم تنتقل إلى النفس: اليأس، القنوط، الغرور، «هذا لي»، الدعاء العريض، الإعراض بعد النعمة. وكأنها تقول: إذا لم تقنعك الآفاق، فافتح نفسك وقرأها. ثم تأتي الجوارح شاهدة يوم القيامة، وكأن كل شيء قد دخل في منظومة البيان. ثم تختم السورة باللقاء والإحاطة. هذه ليست مجرد موضوعات.

إنها هندسة.

من الوحي إلى الكون

البداية بالوحي مهمة جداً، لأن الكون وحده قد يثير الدهشة، لكنه لا يعطي الإنسان دائماً كل الإجابات. يمكن أن يرى الجمال، لكنه قد يختلف في تفسيره. ويمكن أن يرى النظام، لكنه قد يضل في معنى الغاية. الوحي يأتي ليعطي الاسم الصحيح لما يراه الإنسان. هذه شمس، لكنها آية. وهذا قمر، لكنه آية. وهذه أرض، لكنها مخلوقة. وهذه نعمة، لكنها من

الله. وهذه حياة، لكنها ليست النهاية. وهكذا يمنح الوحي العالم معناه. العين ترى. والوحي يفسر.

ومن الكون إلى التاريخ

ثم يأتي التاريخ، لأن الإنسان قد يظن أن السنن الكونية وحدها تكفي. لكن التاريخ يكشف سنناً أخرى: سنناً في الأمم، وفي القوة، وفي الاستكبار، وفي التكذيب. عاد لم تكن قصة للتسليّة. وثمود لم تكن اسمين من الماضي. هما مثالان لما يحدث حين تنفصل القوة عن العبودية، وحين تنفصل المعرفة عن الإرادة. ومن هنا يصبح التاريخ في القرآن مرآة للحاضر. كل جيل يقرأ عاد ينبغي أن يسأل: أين «من أشد منا قوة» في زماننا؟ وكل قارئ لثمود ينبغي أن يسأل: أين «فاستحبوا العمى على الهدى» في نفسي وفي عالمي؟ ومن التاريخ إلى النفس بعد أن يسهل على الإنسان أن يدين عاداً وثمود، يعيده القرآن إلى موضع أصعب: أنت. فقد تكون نسخة مصغرة من المرض نفسه دون أن تملك حضارتهم ولا قوتهم. قد تقول «هذا لي» في نعمة صغيرة.

وقد تستكبر في جدال بسيط. وقد تستحب العمى لأن حقيقة ما تزججك. ولهذا كان القرآن لا يسمح للقارئ أن يضع المذنبين دائماً خارج نفسه. كل قصة سؤال. وكل وعيد مرآة. ومن النفس إلى الجوارح

ثم تأتي شهادة السمع والبصر والجلود، فتبلغ المسؤولية ذروتها. لم يعد الإنسان قادراً أن يقول: هذه مجرد نوايا خفية لا أثر لها. الجسد كله داخل في المشهد. وكأن السورة تقول: الوحي شهد، والكون شهد، والتاريخ شهد، ونفسك شهدت، وجسدك سيشهد. فأين تذهب؟ ثم النهاية: اللقاء

كل ما سبق يقود إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾. هنا تكشف السورة أن المشكلة الكبرى ليست في تفصيل جزئي، بل في اللقاء نفسه.

حين يشك الإنسان في اللقاء، تتغير طريقة الحياة كلها. الدنيا تكبر. والشهوة تكبر. والخسارة الدنيوية تكبر. والنجاح الدنيوي يكبر. لأن الآخرة خرجت من ميزان المقارنة. أما حين يستقر اللقاء، تبدأ الأشياء تعود إلى أحجامها.

«أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ» كيف يغير اليقين باللقاء معنى الحياة كلها إن اليقين بلقاء الله ليس فكرة تؤجل إلى آخر العمر، بل حقيقة تعيد تنظيم اليوم كله. من يعلم أنه سيقف بين يدي الله يتغير معنى الكلبة عنده، ويتغير معنى المال، ويتغير معنى الظلم، ويتغير معنى الخلوة، ويتغير معنى الوقت. فالحياة في ضوء اللقاء ليست مسافة مفتوحة بلا نهاية، بل طريق له موعد. والموعود يغير قيمة الطريق. حين يصبح الموت انتقالاً لا اختفاءً من أكبر أسباب تعلق الإنسان بالدنيا أنه يتعامل مع الموت أحياناً كأنه إغلاق كامل. أما القرآن فيجعله عبوراً إلى اللقاء. وهذا لا يلغي رهبة الموت، لكنه يغير معناها. الموت ليس نهاية العلاقة بالله. بل بداية طور جديد منها.

وهنا نفهم لماذا كانت البشارة للمستقيمين عند الانتقال: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾. لو كان الموت فناً خالصاً، لما كان لهذا الخطاب معنى. إنه باب. اللقاء الذي يجعل الخلوة مختلفة من استقر في قلبه أنه سيلقى الله لا تعود الخلوة عنده فراغاً من الرقابة. بل تصبح من أكثر المواضع كشفاً لصديق الإيمان. في العلن قد يعينك الناس على الانضباط. أما في السر فلا يبقى إلا اللقاء. لهذا كانت الخلوات تصنع المآلات. الذي يتذكر اللقاء حين لا يراه أحد يبني في نفسه صدقاً لا يستطيع التمثيل أن يصنعه. اللقاء الذي يصغر الخصومات كم من خصومة تبدو ضخمة جداً لأنها تملأ اللحظة. لكن حين تضعها أمام اللقاء، تبدأ في الانكماش. هل تستحق كلمة قالها إنسان أن تحملها سنوات في قلبك؟ هل يستحق موقف أن تدخل به إلى الله وقلبك ملوث بالحق؟ ليس معنى ذلك أن الحقوق تترك، بل أن الآخرة تعيد ترتيب ما يستحق أن يستهلك روحك.

بعض المعارك تكبر فقط لأننا نسينا أن الحياة قصيرة. اللقاء الذي يصغر المدح والذم الناس يرفعون ويخفضون. يمدحون اليوم وينسون غداً. لكن من عاش للقاء لا يصبح أسيراً كاملاً لهذه الحركة. يفرح بالثناء الطبيعي، ويتألم من الظلم الطبيعي، لكنه لا يبني قيمته النهائية عليهما. لأن هناك حكماً آخر لم يصدر بعد. وهذا يعطي المؤمن حرية عظيمة. أن يعمل دون أن يكون محتاجاً باستمرار إلى تصديق الجمهور على قيمة عمله.

«ربهم»: اللقاء ليس مع مجهول
قال تعالى: ﴿مَنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾. لم يقل فقط: لقاء الله، بل جاء وصف الربوبية. والرب هو الذي رباهم بالنعيم، وديرهم، وأطعمهم، وساق إليهم الأقدار، وأنزل لهم الكتاب.

فالذي ستلقاه ليس غريباً عن قصتك. هو ربك الذي كان معك في كل مراحلها بعلمه وتديره. وهذا يمنح اللقاء للمؤمن معنى يجمع الهيبة والرجاء.

«أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ»: الإحاطة التي تخيف العاصي وتؤنس الوحيد
تصل السورة إلى كلمة تكاد تحتوي كل ما قبلها: ﴿مُحِيطٌ﴾. والإحاطة هنا تفتح معنيين
متقابلين، لكنهما يلتقيان في العبودية: الخوف والأنس.

للعاصي: لا مكان تختبئ فيه. وللمظلوم: لا حق يضيع. وللوحيد: لا ألم يخرج من العلم.
وللخائر: لا قدر يقع خارج الحكمة. الإحاطة التي تهدم وهم الخفاء الإنسان يحب المناطق
الخفية. يظن أن ما لم يره الناس صار كأنه لم يكن. لكن الإحاطة تهدم هذا الوهم. ليس
هناك «خارج» بالنسبة إلى علم الله. كل شيء داخل. السر. والعلن. وما قلته. وما كدت
تقوله ثم سكت. وما أحسست به. وما أخفيته. وهذا يصنع مراقبة شديدة النقاء. الإحاطة
التي تمنعك من الشعور بالضياع لكنها في الوقت نفسه تطمئن. إذا كان الله محيطاً بكل
شيء، فهو محيط أيضاً بالجزء الذي لم يفهمه أحد منك. بكائك الذي أخفيته. الخذلان
الذي لم تستطع شرحه. الخوف الذي كنت تخجل من الاعتراف به. كل هذا داخل
الإحاطة. ولهذا لا تكون الوحدة مطلقة أبداً عند المؤمن.
قد يتركك الناس، لكنك لا تغادر علم الله.

السورة التي تبدأ بالرحمة وتنتهي بالإحاطة
هذه من أجمل القناطر في سورة فصلت. أول ما تقرأ: ﴿تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وآخر
ما تقرأ: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.
الرحمة في البداية. والإحاطة في النهاية. وكأن السورة تقول: الذي يحيط بك هو الرحيم.
وهذا يمنع فهم الإحاطة كأنها مراقبة باردة مجردة. إنها إحاطة رب أنزل إليك الهداية قبل
أن يحاسبك. وحذرك. وبين لك. وأرسل إليك الآيات. وفتح باب الاستغفار. وبشرك.
فالإحاطة ليست مفاجأة قاسية في النهاية؛ سبقتها الرحمة من أول الطريق.

حين تكامل أسماء الله في بناء السورة

تظهر في السورة أسماء وصفات ذات دلالة عميقة: الرحمن، الرحيم، العزيز، العليم، السميع، الحكيم، الحميد، الغفور. ليست هذه الأسماء زينة ختامية للآيات، بل مفاتيح لفهمها. حين يتحدث عن تنزيل القرآن: الرحمن الرحيم. حين يتحدث عن تقدير السماوات: العزيز العليم. حين يأمر بالاستعاذة عند نزغ الشيطان: السميع العليم. حين يصف القرآن: حكيم حميد. وحين يصف نزل الجنة: غفور رحيم. كل مقام يناسبه الاسم الذي يختتمه. ومن هنا يتعلم القارئ أن أسماء الله ليست باباً منفصلاً عن التدبر، بل هي قلب التدبر.

«العزيز العليم»: القوة التي لا تنفصل عن العلم

العالم البشري يخاف أحياناً من القوة لأنها قد تكون جاهلة، ويخاف من العلم لأنه قد يكون عاجزاً. أما عند الله فتجتمع العزة والعلم. لا قدرة عمياء. ولا علم عاجز. وهذا يمنح التقدير الكوني معنى الكمال. «السميع العليم»: لا يضيع صوت ولا نية عند النزغ والاستعاذة، أنت تحتاج أن تعرف أن الله يسمع ويعلم. يسمع دعائك، ويعلم ما يمر في قلبك قبل أن تصوغه. فلا تحتاج أن تشرح كل شيء. «حكيم حميد»: ما يصدر عنه حكمة ومستحق للحمد هذه من أعمق الجمل لمن يعيش مع الأقدار. قد تفهم الحكمة أو لا تفهمها، لكن مصدر الوحي حكيم حميد. وهذا يربط المعرفة بالثقة.

سورة فصلت وتربية الإنسان على استعادة الدهشة
من أكثر ما تفعله السورة أنها تعيد الأشياء العادية إلى مقام الآية. الليل الذي رأيته آلاف
المرات، الأرض التي مشيت عليها، المطر الذي اعتدته، جسدك الذي تعيش فيه منذ
ولادتك، كلها تُعاد إليك وكأنك تراها أول مرة. إن واحدة من مصائب الاعتياد أنه
يسرق من الأشياء دلالتها. التدبير يعيد الدلالة. أن ترى الأشياء لأول مرة تخيل أنك ترى
القمر أول مرة في حياتك. أو ترى الأرض بعد المطر أول مرة. أو تنتبه لأول مرة إلى أن
جسمك يعمل خلال النوم دون أن تدركه. هذه الدهشة ليست طفولية بمعنى السذاجة. بل
إيمانية بمعنى اليقظة. العالم لا يصبح أقل عجباً لأنك ألفتَه. المؤلف أعظم من الخارق أحياناً
نحن نبحث عن المعجزات النادرة، بينما نعيش داخل أشياء عجيبة تكررت حتى فقدنا
الإحساس بها.
نبض القلب. النوم. الوعي. الذاكرة. النبات. الليل. النهار. القرآن يربينا أن لا نحتاج دائماً
إلى خرق للعادة حتى نؤمن. فالعادة نفسها مليئة بالعجب.

السورة التي تربي القارئ على ألا يكون متفرجاً
بعد كل هذه الآيات، لا يمكن أن تخرج من سورة فصلت بوصفك شاهداً محايداً. السورة
تسألك في كل مقطع: أين أنت؟

أأنت من الذين قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ ؟
أم من الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ؟
أأنت ممن يقول عند النعمة: ﴿هَذَا لِي﴾ ؟

أم ممن يرى الفضل؟ أتدفع بالتي هي أحسن؟ أم تجعل الإساءة تعيد تشكيلك؟ هل القرآن
عندك هدى وشفاء؟ أم كأنك تنادى من مكان بعيد؟ هذه ليست أسئلة تفسير فقط. إنها
أسئلة مصير.

خاتمة القسم: سورة تجعل الإنسان مسموعاً أمام نفسه

ربما كانت أعظم ثمرة لسورة فصلت أنها لا تسمح لك أن تبقى غريباً عن نفسك. تكشف
لك آليات الإعراض، والتزوين، والاستتجار، واليأس، والغرور، ثم تفتح أمامك بديلاً
واضحاً: الاستقامة، والإنصات، والتوحيد، والإحسان، والرجاء. هي لا تصف الإنسان
لتفضحه فقط. بل لتدله على طريق الخروج من نفسه القديمة. ومن هنا فإن «فصلت»
ليست صفة للآيات وحدها. كأن السورة تفصل لك أيضاً نفسك. تفتح طبقاتها. تريك
مواضع الخلل. ثم تعيدك في النهاية إلى كلمة واحدة تكفي لتهداً كل الفوضى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ .

من التنزيل إلى التنزيل: القوس الجمالي بين نزول القرآن وتنزل الملائكة تبدأ سورة فَصِّلَتْ بقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم تمضي بك في طريق طويل من البيان والإندار والجدل والكون والتاريخ والنفس، حتى تصل إلى المؤمنين المستقيمين فتقول: ﴿تَنْزِيلٌ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾. وبين «تنزيل» القرآن في أول السورة و«تنزل» الملائكة في قلبها قوس جمالي وروحي شديد الدقة؛ كأن من أحسن استقبال ما نزل إليه من السماء في الدنيا، استقبلته السماء نفسها عند نهاية الطريق.

القرآن ينزل أولاً ليهدي الإنسان، والملائكة تنزل لاحقاً لتطمئنه. في البداية يأتيه الخطاب: اقرأ، آمن، استقم، استغفر، قاوم، اصبر. وفي النهاية يأتيه الجواب: لا تخف، لا تحزن، وأبشر. وبين الخطابين عمر كامل من الاستجابة. إنها حركة نزولية مزدوجة، لكنها ليست تكراراً. التنزيل الأول تكليف ورحمة وهداية، والتنزل الثاني تكريم وطمأنينة وبشارة. الأول يضع الطريق أمامك، والثاني يستقبلك عند نهايته. وكأن السورة تقول: السماء التي أرسلت إليك الكتاب لم تنسك بعد أن بدأت تمشي به.

الوحي ينزل قبل الامتحان

من رحمة الله أن البيان يسبق الحساب. لم يبدأ الطريق بالمفاجأة، بل بالتفصيل: ﴿كِتَابٌ فَصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾. الإنسان يُخبر بما أمامه قبل أن يصل إليه، ويُحذر من الخطر قبل أن يلقاه، ويُبشر بالجنة قبل أن يراها. وهذا من تمام الرحمة.

فالقرآن ليس مجرد سجل لما سيحدث، بل يد ممدودة قبل حدوثه. كل أمر فيه وقاية. وكل نهى حماية. وكل وعيد إنذار قبل السقوط. وكل وعد قوة على الاحتمال. ولهذا كان تنزيل القرآن رحمة حتى حين يخوف؛ لأن التخويف قبل الحافة إنقاذ، لا قسوة.

من استقبال الوحي استقبلته الملائكة

إذا تأملت تركيب السورة وجدت أن المستقيمين ليسوا قوماً حصلوا على البشارة بلا مقدمات. قبل قوله: ﴿تَنْزِيلٌ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ جاء قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

أي إن التنزل الثاني ثمرة استجابة للتنزيل الأول. القرآن نزل، فسمعوا، أمر، فأطاعوا. حذر، فخافوا. بشر، فرجوا. وقعوا، فاستغفروا. تعبوا، فاستقاموا. ثم جاء اليوم الذي انتهت

فيه مرحلة التكليف وبدأت مرحلة البشارة. وهنا يتحول معنى العلاقة بالقرآن. كل مرة تقرأ فيها آية وتستجيب لها، فأنت لا تقوم بفعل معزول؛ أنت تبني هيئة النهاية. السماء ليست بعيدة عن المؤمن

من جمال هذا الرابط أن السماء في السورة ليست مجرد جهة بعيدة. منها ينزل الكآب، ومنها تنزل الملائكة، وفيها من يسبحون لله ليلاً ونهاراً لا يسأمون. وهكذا يعيش المؤمن وفي وعيه أن علاقته بالله ليست محصورة في الأرض. هناك عالم غيب يحيط بالتجربة التي يراها هو ناقصة. حين يصلي وحده، ليس الوجود خالياً من العبادة. وحين يثبت في موضع صعب، لا يكون ثباته مجهولاً. وحين يرحل عن الدنيا، لا يدخل فراغاً، بل يُستقبل. وهذا من المعاني التي تقاوم وحشة الإنسان الحديثة؛ شعوره بأنه كائن صغير معزول في كون هائل بارد. سورة فصلت تعيد الكون إلى هيئته الإيمانية: كون مخلوق، مأمور، مسبح، ومحاط بعلم الله.

الفرق بين نزول الكلام ونزول الملائكة

تنزيل القرآن يحمل معنى الإرشاد، أما تنزل الملائكة فيحمل معنى التثبيت. وهذا التناسب مهم؛ لأن الإنسان في أول الطريق يحتاج إلى معرفة، وفي نهاية الطريق يحتاج إلى أمان. في الدنيا أكبر سؤال: ماذا أفعل؟ وعند الانتقال الأكبر: ماذا سيحدث لي؟ فيأتي القرآن ليجيب الأول، وتأتي الملائكة لتجيب الثاني. والإيمان الصحيح يجمع بينهما: تعرف طريقك في الدنيا، وتطمئن إلى مالك عند الله.

«لا تخافوا ولا تحزنوا»: ثمرة عمر من الاستقامة

هذه الجملة لا تبدو مجرد كلمات مواساة إذا ربطتها بالتنزيل الأول. إن المؤمن عاش مع آيات كثيرة تقول له: لا تخف إلا الله، لا تحزن حزناً يقطع الرجاء، لا تجعل الدنيا أكبر همك، استقم، ادفع بالتي هي أحسن، استعذ بالله. ثم تأتي النهاية وكأن كل هذه التربية أثمرت حالاً جديداً: لم يعد هناك ما يحتاج أن نخافه، ولا ما يستحق أن نحزن عليه. في الدنيا كان مأموراً أن يجاهد الخوف. في الآخرة يُرفع عنه الخوف نفسه. في الدنيا كان مأموراً أن يصبر على الحزن. في الآخرة يُسحب منه الحزن نفسه. وهنا ترى كيف أن التكاليف ليست أعباءً منفصلة، بل تدريب على هيئة وجود أرقى.

من «فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» إلى «حتى يتبين لهم أنه الحق»: الوضوح الذي يلاحق الإنسان حتى النهاية

قال تعالى في أول السورة: ﴿كَتَابُ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ﴾، وقال في آخرها: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. وكأن السورة تبدأ بالتفصيل وتنتهي بالتبين. الوحي مفصل، والكون يكشف، والنفس تشهد، والتاريخ يكرر الدروس؛ فلا يكون

الإنسان أمام حقيقة بعيدة، بل أمام حقيقة نتقدم نحوه من جهات متعددة. وهذه البنية تهدم حجة قديمة في النفس: «لو اتضح لي الحق أكثر لفعلت». السورة تكشف أن الوضوح وحده لا يضمن الطاعة. فقد يتبين الحق ويبقى الهوى. وقد نتضح الطريق وتبقى إرادة السير غائبة. ولهذا فإن الإنسان يحتاج إلى دعاء الهداية حتى بعد المعرفة. يحتاج أن يقول: يا رب، لا ترني الحق فقط، بل ارزقني أن أحبه، ولا ترني الباطل فقط، بل ارزقني أن أكرهه. التفصيل رحمة لأن الغموض يوسع الأعداء حين يكون الطريق غامضاً يستطيع الإنسان أن يقول: لم أعرف. أما إذا فُصِّلَت الآيات، ضاقت مساحة الاعتذار. ومن هنا نفهم جانباً آخر من رحمة التفصيل: الله لا يريد للعبد أن يهلك بسبب التباس كان يمكن رفعه. يوضح، ويكرر، ويضرب الأمثال، ويحكي القصص، ويفتح الآفاق. الكتاب مفصل لأن الرحمة تريد للإنسان فرصة كاملة.

الآفاق ليست بديلاً عن الوحي
قول الله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ لا يعني أن الإنسان يستغني بالكون عن القرآن. بل الآفاق تؤكد ما جاء به الوحي. فالكون بلا وحي قد يُقرأ قراءات متناقضة، أما الوحي فيمنحه إطاراً ومعنى.

القرآن يقول: انظر. والكون يقول: هذا ما تراه. ثم يلتقي الدليلان. الأنفس: البرهان الذي لا تستطيع السفر بعيداً عنه
قد يهرب الإنسان من الكتب، لكنه لا يستطيع الهرب من نفسه. جسده، ووعيه، وخوفه، وأحلامه، وشعوره بالعدل، ورغبته في البقاء، كلها تسكن معه.
ولهذا كان قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بالغ القوة. كأن الله جعل بعض الآيات لا تحتاج إلى رحلة جغرافية.

أنت تحمل الدليل معك.

من «قلوبنا في أكنة» إلى «حتى يتبين لهم»: كيف يقاوم القلب ما يراه العقل هذه من أعمق المفارقات في السورة. في أولها يقول المعرضون: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾، وفي آخرها يقول الله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. أي إن التبين قد يقع، لكن القلب سبق فبنى حول نفسه غطاء.

وهنا يظهر الفرق بين «أن تعرف» و«أن تقبل». المعرفة فعل عقل. والقبول فعل أعمق تدخل فيه الإرادة والهوى والكبر والخوف. كم من إنسان يقول في قرارة نفسه: نعم، هذا هو الحق، لكنه لا يريد أن يتحمل ثمنه. ومن هنا كان إصلاح القلب شرطاً لفهم مثمر. بعض المحجب تُصنع بعد رؤية النور

الأكنة ليست دائماً جهلاً أولياً. قد تكون آلية دفاع بعد ظهور شيء من الحقيقة. الإنسان يرى أن هذا الأمر سيطلبه بتغيير مكلف، فيبدأ بتكوين اعتراضات تحمي استقراره القديم. وهذه من أخطر وظائف العقل حين يتحول من باحث عن الحق إلى موظف عند الهوى. يبدأ بتبرير ما قرره النفس مسبقاً. ومن هنا كانت الشجاعة الفكرية الحقيقية أن تسمح للدليل أن يهزمك إذا كان أقوى منك. أن تقول: كنت مخطئاً. وهذه جملة صغيرة لكنها تحتاج تواضعاً كبيراً.

«قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ»: كيف يطهر القرآن صورة النبوة من الغلو في قلب معركة التكذيب يأمر الله ﷺ أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. هذه الآية تحمي مقام النبوة من طرفين: من التحقير ومن الغلو. النبي بشر، فلا يجوز تأليهه، لكنه يوحى إليه، فلا يجوز تسويته بالناس في مقام الرسالة.

وهذا التوازن من جمال الإسلام. يرفع النبي ﷺ بأكل مقام بشري: العبودية والرسالة، دون أن يعطيه شيئاً من خصائص الربوبية. فالنبوة ليست انتقالاً من البشرية إلى الألوهية، بل كمال في العبودية داخل البشرية.

«مثلكم» لا تلغي الفارق بل تضبطه

قد يسيء إنسان فهم «بشر مثلكم» فيظن أنها تقليل من شأن النبوة. لكن الآية نفسها تكفل: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. فالبشرية مشتركة، والوحي خصوصية عظيمة.

وهذا يجعل النبي ﷺ قدوة قابلة للاقتداء من جهة كونه بشراً، ورسولاً واجب الاتباع من جهة الوحي. لو كان من جنس غير جنسنا، لقال الإنسان: لا أستطيع أن أقتدي به. أما وقد عاش الجوع والحزن والخوف والأذى، فقد صار اقتداؤه حجة عملية على إمكان العبودية وسط شروط البشر. الرسالة لا تتمحور حول شخص الرسول

قال: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾. مركز الوحي ليس تضخيم شخص الرسول، بل الدلالة على الله.

وهذا معيار لكل دعوة صادقة بعده: كلما اقترب الناس من الله أكثر من تعلقهم بالداعية، كانت الدعوة أنقى.

القسم الثاني والثلاثون

«فَاسْتَغْفِرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ»: كيف يجمع القرآن بين المثال العالي والرحمة بالضعف بعد إعلان التوحيد يأتي الأمر: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾. من أجمل ما في هذه الجملة أنها تجمع التكليف والتدارك في نفس واحد. استقيموا؛ هذا هو المعيار العالي. واستغفروه؛ لأنكم بشر وستقصرون.

القرآن لا يخفض المعيار حتى يلائم ضعفنا، ولا يتجاهل ضعفنا حين يرفع المعيار. وهذا توازن بالغ الرحمة. لو قال: استقيموا فقط، ربما ظن الضعيف أن أول عثرة نهاية. ولو فتح الاستغفار بلا استقامة، لتحول الرجاء إلى تسبب. لكن الجملة تجمعهما: امش مستقيماً، وإذا ملت فارجع. الاستغفار يحفظ الطريق من اليأس الشيطان له بابان متعاكسان: قبل الذنب يهون لك الخطيئة، وبعد الذنب يعظمها حتى يقنعك أن العودة مستحيلة. والاستغفار يعلق الباب الثاني. يقول لك: نعم، أخطأت، لكن الطريق لم يعلق. وهذا من أعظم الفروق بين التدين الصحي والتدين الذي يطحن الإنسان: الأول يجعل الذنب سبباً للعودة، والثاني قد يجعل الذنب سبباً للاستسلام.

«الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ»: حين تنزل العقيدة من السماء إلى جيب الإنسان بعد التوحيد مباشرة يأتي ذكر الزكاة: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾. وهذا انتقال بالغ الدلالة؛ لأن القرآن لا يسمح للتوحيد أن يبقى فكرة مجردة. إذا كان الله ربك، فكيف نتعامل مع ماله الذي استخلفك فيه؟ المال يكشف الكثير مما لا تكشفه الكلمات. يمكن للإنسان أن يتحدث عن الإيمان طويلاً، لكن لحظة البذل تمتحن درجة تحرير القلب من التعلق. ولهذا فالزكاة ليست مجرد حركة مالية، بل تربية في الملكية: هذا المال في يدك، لكنه ليس خارج سلطان الله.

الفقير يدخل في بنية العبادة في الإسلام لا تكون علاقتك بالله منفصلة عن علاقتك بالاحتياج. الصلاة تصعد، والزكاة تخرج إلى الناس. وكأن الدين يصنع حركة رأسية وأفقية في وقت واحد: صلة بالله، ورحمة بعباده. ومن هنا فإن التدين الذي يكثر من الشعائر لكنه يقسو على الضعفاء يحمل خلاً في الترجمة.

القسم الرابع والثلاثون

«لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»: الشيء الوحيد الذي لا تأكله يد الفناء
قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. بعد الحديث عن مال
يخرج من اليد، يأتي وعد بأجر لا ينقطع. وهذا التناسب جميل: ما تخرجه الله لا يضيع، بل
يتحول من صورة زائلة إلى رصيد لا يمسه الانقطاع.

كل ما تملكه في الدنيا «ممنون» بمعنى معرض للانقطاع. العمر ينقص، والقوة تضعف،
والعلاقات تتغير، والأشياء تهترئ. لكن هناك عملاً يخرج من زمن الفناء إلى أفق البقاء.
ولهذا فإن الإيمان بالآخرة ليس صرفاً للإنسان عن الحياة، بل تعليمه أين يضع أثمن ما
عنده.

سورة فصلت وسؤال الإنسان الكبير: أين أضع قلبي؟

بعد هذه الرحلة يمكن أن نرى أن كثيراً من موضوعات السورة تدور حول موضع القلب. هل يضعه في القوة فيقول: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنْ قُوَّةٍ﴾؟ أم في النعمة فيقول: ﴿هَذَا لِي﴾؟ أم في القرناء فيتبع تزيينهم؟ أم في الله فيقول: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾؟

المشكلة ليست أن الإنسان يتعلق بالأشياء فقط، بل أن يعطيها مقاماً أكبر من حقيقتها. القلب لا يعيش بلا مركز. فإن لم يكن الله مركزه، احتل المركز شيء آخر. مرة مال. ومرة شخص. ومرة شهرة. ومرة خوف. ومرة فكرة عن الذات. والتوحيد هو إعادة المركز إلى موضعه. كل اضطراب كبير قد يكون اضطراب مركز حين تصبح قيمتك مرتبطة بمدح الناس، يهزك ذمهم. وحين تصبح طمأنينتك مرتبطة بالمال، يهزك نقصه. وحين تصبح هويتك مرتبطة بمنصب، يهزك فقده. أما إذا استقر الأصل في «ربنا الله»، بقيت الأشياء مهمة، لكنها لم تعد آلهة صغيرة. ومن هنا يأتي شيء من سكينه المؤمن. ليس لأنه لا يحب. بل لأنه لا يعبد ما يحب.

سورة فَصَّلَتْ بوصفها كِتَاباً في تحرير الإنسان

إذا أردنا أن نقرأ السورة من زاوية أخرى، وجدناها مشروع تحرير كامل. تحرر الإنسان من عبادة المخلوقات: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾. وتحرره من سلطان الناس في الخصومة: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. وتحرره من وهم القوة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. وتحرره من اليأس: ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾. وتحرره من الضجيج: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ﴾ فيكشف له آيته. وتحرره من وهم الاختفاء: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

وكل هذا التحرير يجتمع في العبودية. وهذا من مفارقات الإسلام الجميلة: أعظم حرية يبلغها الإنسان حين يعرف لمن يكون عبداً. لأن من عبد الله وحده صار أقدر على أن يقول لكل ما سواه: أنت لست ربي.

من «بشيراً ونذيراً» إلى «لا تخافوا ولا تحزنوا»: كيف يربي القرآن القلب بين الخوف والرجاء

قال تعالى في أول السورة: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾. فالقرآن لا يبيّن الإنسان على لون شعوري واحد. الخوف وحده قد يصنع اليأس، والرجاء وحده قد يصنع الأمن الكاذب. أما القرآن فيجعل القلب يمشي بينهما.

ينذره حتى لا يعتز. ويبشره حتى لا يقنط. ثم يصل المؤمن في النهاية إلى مقام تتغير فيه المعادلة: ﴿لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا﴾. كان في الدنيا يحتاج إلى الخوف التربوي. أما بعد النجاة فلا خوف. ويبقى البشر. وهذه من أجمل نهايات التربية: ما كان وسيلة في الدنيا لا يبقى ضرورة في دار الأمان.

لماذا تكرر السورة معنى السماع؟
تبدأ المشكلة بقولهم: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ، ثم يقولون: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ، ثم يأمر بعضهم بعضاً: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ ، ثم في القيامة يشهد ﴿سَمِعَهُمْ﴾ عليهم.
إن السمع خيط بنائي كامل في السورة. أغلقوه في الدنيا، فانفتح عليهم شاهداً في الآخرة. وهذا من أروع صور العدالة البلاغية في النظم: الأداة التي رفضت الهداية تصبح أداة شهادة. وكأن السورة تسأل القارئ منذ البداية: ماذا ستفعل بأذنك؟ هل تجعلها باباً للقرآن، أم تجعلها شاهداً مؤجلاً؟

لماذا تكرر السورة معنى الرؤية؟

الرؤية أيضاً حاضرة بقوة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، ﴿أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾، ﴿سَنُرِيهِمْ
آيَاتِنَا﴾، ثم ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ تشهد.

فالسمع والبصر ليسا حاستين فقط في بناء السورة، بل طريقتان في تلقي الحقيقة. القرآن
يُسمع. والكون يُرى. ومن رفض المسموع والمرئي اجتمع عليه الشاهدان.

حين يصبح الإنسان نفسه ساحة التقاء القرآن والكون وهنا يبلغ البناء ذروة أخرى. القرآن من خارجك يخاطبك، والكون من حولك يدلّك، والنفس في داخلك تكشف لك، والجسد معك يسجل. لا توجد جهة محايدة. كأن الله جعل الإنسان في مركز شبكة من الآيات. فإن اهتدى، انسجم كل شيء في وعيه: الكتاب والكون والنفس. وإن أعرض، عاش ممزقاً بين عالم يقول له شيئاً وقلب يصر على شيء آخر. خاتمة هذا القسم: الحقيقة لا تحتاج إلى رفع صوتها، بل إلى قلب غير مغلق بعد كل ما رأيناه من التفصيل والآفاق والأنفس والتاريخ والجوارح، يبقى أصل القضية شديد البساطة: هل القلب مفتوح؟ فالمشكلة لم تكن يوماً في فقر الدلالة. كانت في قابلية الاستقبال. وهذا يجعل أخطر دعاء يمكن أن يرفعه قارئ سورة فصلت دعاءً لا يتعلق بالمعلومات، بل بالقلب: أن لا يجعل الله بينه وبين الحق حجاباً يصنعه بيده.

جماليات الألفاظ المفصليّة في سورة فُصِّلَتْ؛ حين تصنع الكلمة وحدها مشهداً كاملاً في الذهن

من أسرار سورة فُصِّلَتْ أن كثيراً من معانيها الكبرى لا تُبنى بالجميل وحدها، بل بكلمات مفصليّة شديدة الكفافة؛ كلمات إذا وقفت عندها قليلاً وجدت أنها تحمل صورة وصوتاً وحركة وحالة نفسيةً كاملة. وهذا هو أحد المواضع التي يظهر فيها أن الكلمة القرآنية ليست مجرد دلالة على معنى، بل كيفية حضور ذلك المعنى في النفس. فليس المهم أن تعرف أن «الأكنة» ستر، بل أن تشعر بثقل الغطاء على القلب. وليس المهم أن تعرف أن «الوقر» ثقل، بل أن تسمع في اللفظة نفسها صلابة الانغلاق. وليس المهم أن تعرف أن الأرض تحيا بعد المطر، بل أن ترى في «اهتزت وربت» الحركة وهي تبدأ داخل التراب. ومن هنا يمكن أن نقرأ السورة مرة أخرى لا من جهة موضوعاتها، بل من جهة ألفاظها المفصليّة؛ لأن اللفظة فيها ليست حجراً صغيراً في البناء، بل قد تكون أحياناً نافذة على المشهد كله.

«أكنة»: القلب الذي غُلف من الداخل

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾. لفظة «أكنة» لا تقول فقط إنهم لا يفهمون، بل ترسم قلباً موضوعاً داخل أغطية. وهذه الصورة أعمق من مجرد الجهل؛ لأنّ الجهل قد يكون فراغاً ينتظر المعرفة، أما الكِنّ فهو وجود مانع بين القلب والمعنى.

إنك لا ترى قلباً فارغاً، بل قلباً محجوباً. وهذا الفرق يغير فهمك للإعراض. بعض الناس لا يحتاجون معلومات إضافية بقدر ما يحتاجون أن تُرفع الحواجز التي بنتها النفس حول نفسها. حجاب من الكبر، وحجاب من العادة، وحجاب من المصلحة، وحجاب من الخوف من التغيير. وكأن «الأكنة» طبقات نفسية، لا طبقة واحدة. كلما رفض الإنسان الحق بعد ظهوره، صنع غطاءً جديداً حتى يصير ما كان واضحاً بالأمس بعيداً اليوم.

«وقر»: حين تصبح الأذن مثقلة قبل أن يصلها الصوت

قالوا: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾. الوقر ثقل يمنع السمع أو يضعفه. والصورة هنا شديدة المناسبة لحال من لا يريد أن يستقبل الوحي. ليست المشكلة أن الصوت غائب، بل أن الأذن نفسها مثقلة.

وهذه صورة عميقة لحياة الإنسان الفكرية؛ فقد يصل إلى مرحلة يكون فيها محاطاً بأحكام مسبقة تجعل كل شيء يسمعه يمر عبر مرشح كثيف قبل أن يصل إلى قلبه. لا يسمع الكلام

كما قيل، بل كما يسمح له موقفه السابق أن يسمعه. ومن هنا كان تحرير السمع من «الوقر» تحريراً من الانحياز الذي يمنع الإنسان من إعطاء الحقيقة فرصة عادلة.

«حجاب»: حين تتحول المسافة النفسية إلى جدار

ثم قالوا: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾. بعد القلب المغطى، والأذن المثقلة، يأتي الحجاب الكامل. وكأن السورة تصعد في تصوير الانغلاق: الداخل مغلف، والمدخل مثقل، والمسافة نفسها مسدودة.

الحجاب هنا يجعل الإعراض مرئياً. كأن بين الطرفين جداراً لا يمر منه شيء. والمثير أن الحجاب لم ينزل عليهم من السماء؛ هم يعلنونه موقفاً: بيننا وبينك حجاب. وهكذا قد يتحول الموقف الفكري إلى هوية نفسية: أنا لا أريد فقط أن أختلف معك، بل أريد أن أبقى بعيداً عن كل ما تقوله. وهذه أخطر لحظة في الحوار: حين لا يعود الخلاف خلافاً حول فكرة، بل يتحول إلى رفض وجودي لسماع الطرف الآخر.

«صرصر»: صوت العذاب قبل أن ترى أثره

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾. لفظة «صرصر» نفسها تحمل شيئاً من خشونة

الريح وشدها. قبل أن يشرح لك السياق أثرها، يعطيك الصوت إحساساً بها.

وهذا من جمال العربية في القرآن: بعض الألفاظ تكاد تحاكي ما تصفه. «صرصر» ليست نسيماً. ليست كلمة لينة. في تكرار الصاد والراء شيء من القسوة والاحتكاك والامتداد. وكأن اللفظة نفسها تدخل إلى السمع قبل أن تدخل إلى العقل. ومن هنا يظهر أن الإيقاع في القرآن ليس زينة موسيقية منفصلة عن المعنى؛ بل أحياناً جزء من بناء المعنى نفسه.

«نحسات»: الزمن الذي صار وعاءً للعذاب

قال تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾. لا يصف العذاب فقط، بل يصف الأيام نفسها بما وقع

فيها. وكأن الزمن أخذ لون الحدث.

وهذا ما يحدث في الذاكرة الإنسانية أيضاً. هناك أيام لا تتذكرها كتواريخ، بل كأحاسيس. يوم فرح، ويوم فقد، ويوم خوف. الزمن في التجربة البشرية ليس محايداً تماماً؛ يمتلئ بما حدث فيه. لكن الآية تعلننا أيضاً أن اليوم في ذاته لا يملك نحساً مستقلاً عن تقدير الله، وإنما وُصف بما وقع فيه من العذاب على القوم. فالزمن ليس قوة غيبية مستقلة. هو ظرف يجري فيه أمر الله.

«الهون»: حين يعذب الكبر بذل يناسبه

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾. الهون ليس ألماً فقط، بل ذل. وهذا اللفظ شديد المناسبة لقوم استكبروا. كأن الجزء لم يأتهم من جهة الجسد وحده، بل من جهة الصورة التي بنوها عن أنفسهم.

قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءهم الهون. هنا تصنع الكلمة وحدها مقابلة بين حالين: تعالٍ في البداية، وذل في النهاية.

«استحبوا العمى»: حين يصبح الضلال محبوباً لا واقعاً فقط
في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ جمالية خاصة في اختيار «استحبوا». لو قيل:
اختاروا العمى، لأدى معنى القرار، لكن «استحبوا» تكشف القلب.

إنهم لم يتجهوا إلى العمى فقط، بل صار العمى محبوباً عندهم من جهة موافقته لأهوائهم. وهنا تتحول القضية من حركة خارجية إلى ميل داخلي. وهذه الدقة مهمة؛ لأن كثيراً من الانحرافات لا تستمر بسبب الجهل، بل بسبب الحب. الإنسان قد يعرف أن أمراً يضره، لكنه يحبّه، فيبحث عن فكر يبرره. ومن هنا فإن هداية الإنسان ليست فقط تعديل أفكاره، بل إعادة ترتيب محابه.

«يوزعون»: مشهد الجمع المنضبط إلى النار
قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. اللفظة تعطي إحساساً بالجمع والترتيب والمنع من التفرق. ليس مشهد فوضى، بل سوق منضبط لا يستطيع أحد أن
ينفلت منه.

وهنا تنقلب كل صور الحرية الوهمية في الدنيا. الذين كانوا يختارون كيف يعيشون يصلون إلى موضع لا يملكون فيه الاتجاه. إنها صورة شديدة الرهبة: الحركة مستمرة، لكن الإرادة لم تعد هي التي تقودها.

«جلودهم»: أقرب شيء صار شاهداً
اختيار «الجلود» من أشد اختيارات السورة إيلاًماً للشهد؛ لأن الجلد هو الحد الفاصل بينك وبين العالم، وأقرب ما يحيط بك من جسدك. فإذا تكلم الجلد، لم يعد للإنسان موضع يشعر أنه خاص به تماماً. واللفظة نفسها تجعل الشهادة حسية جداً. ليست شهادة معنى مجرد، بل شيء تراه وتلمسه كل يوم. وهنا تبلغ المفاجأة مداها: ما كان غطاءً صار شاهداً.
«أرداكم»: الظن الذي أسقط صاحبه إلى النهاية

قال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾. «أرداكم» لفظة قوية؛ ليست فقط أضلكم أو أخطأ بكم الطريق، بل أسقطكم في الردى.

وكان الظن لم يبق فكرة داخل الرأس، بل صار قوة تدفع الإنسان إلى مصيره. وهذا يكشف خطورة التصورات العقدية. الفكرة عن الله ليست شيئاً بارداً؛ قد تكون حياة أو هلاكاً.

«قيضنا»: الصحبة التي تأتي بعد اختيار المسار
قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾. اللفظة توحى بالتهيئة والتيسير. وبعد أن اختاروا طريقهم، صار لهم من يوافقه ويزيدهم فيه.

وهنا معنى مخيف: الإنسان قد يعاقب أحياناً بأن يُترك مع ما يحب. يختار اتجاهها، ثم يجد من يعينه عليه، فيظن أن كثرة الموافقين دليل صحة، بينما قد تكون زيادة في الفتنة. ومن هنا كان من أعظم النعم أن يرزق الله الإنسان من يرده إذا انحرف، لا من يزين له انحرافه.

«والغوا»: الكلمة التي تحاكي الفوضى
قالوا: ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾. اللفظة نفسها تحمل معنى الكلام الساقط الذي لا ينتظم على حق. ليست مناقشة، ولا احتجاجاً، بل إفساد لمساحة السماع. وهذا يجعلها ملائمة تماماً لفكرة التشويش. الهدف ليس بناء خطاب، بل منع الخطاب الآخر من الوصول.

«تنزل»: الطمأنينة التي تأتي على مهل وتتابع
قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾. في «تنزل» إحياء بالتتابع والاستمرار، لا مجرد نزول خاطف. وكان البشارة لا تأتي تكبر سريع ثم تنقطع، بل تحيط بالمؤمن في لحظة يحتاج فيها إلى الأمان.

واللفظة في صوتها أيضاً ألين بكثير من ألفاظ العذاب السابقة. بعد «صرصر» و«صاعقة» و«الهون»، تأتي «تنزل» بنعومة تناسب الملائكة والبشارة. وهذا من النظم الجمالي: الأصوات نفسها تتغير بتغير المشهد.

«حميم»: حين تتحول العداوة إلى دفء
قال تعالى: ﴿كَانَهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. «حميم» تحمل القرب والحرارة واللصوق في المودة. والجميل أن هذه الكلمة تأتي بعد «عداوة». المسافة بين اللفظتين نفسها معجزة أخلاقية.

عداوة. ثم ولي حميم. كيف؟

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

كأن الإحسان جسر لغوي ونفسي بين كلمتين كانتا تبدوان متناقضتين.

«نزع»: الشر في صورته الأولى الصغيرة

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾. النزغ ليس دائماً فعلاً كبيراً مكتملاً، بل

دفعاً أولى، حركة صغيرة، وخزة في النفس.

وهذا الاختيار بالغ الدقة؛ لأن كثيراً من الشر يبدأ صغيراً جداً. كلمة في القلب: رد عليه. خاطر: لماذا تسكت؟ ميل بسيط إلى الانتقام. ثم إذا لم يقطع، تمدد. فالقرآن يعالج الشر عند جذره، لا بعد أن يصير شجرة.

«خاشعة»: حين ترى الأرض وكأن لها هيئة قلب

قال تعالى: ﴿تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾. هذه واحدة من أجمل الكلمات في السورة. كان

يمكن أن يقول يابسة أو هامدة، لكنه اختار «خاشعة». فانتقل المشهد من وصف مادي

إلى هيئة ذات إحياء تعبدي.

الأرض ساكنة. منخفضة. لا حركة فيها. ثم يأتي الماء. «اهتزت»: الحياة لا تدخل بصمت

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾. بعد سكون «خاشعة» تأتي «اهتزت». الكلمة نفسها

حركة.

السورة لا تقول إن النبات خرج فقط، بل تصور اللحظة التي بدأ فيها الجمود ينكسر. وهذه واحدة من جماليات الانتقال في القرآن: من الخشوع الساكن إلى الاهتزاز الحي. وكأن الحياة حين تعود لا تبقى سراً طويلاً؛ تبدأ الأرض كلها في إعلانها. «ربت»: الحركة التي صارت نماء

ثم قال: ﴿وَرَبَّتْ﴾. لم تقف الحركة عند الاهتزاز، بل تحولت إلى زيادة وارتفاع ونمو.

اهتزت: بداية الحياة. وربت: امتداد الحياة. والكلمتان معاً تصنعان فيلماً لغوياً قصيراً لعودة الأرض من الموت.

«قنوط»: اليأس حين يصير حالة محيطة

قال تعالى: ﴿فَيُئْسُ قَنُوطٌ﴾. اجمع بين اللفظتين يزيد ثقل المشهد. اليأس ثم القنوط. ليس

حزناً عابراً، بل حالة يصبح فيها الإنسان كأنه لا يرى وراء الألم شيئاً.

وهذا مناسب للنفس التي لم تتعلم أن ترى وراء الأسباب رب الأسباب.

«عريض»: حين يتمدد الدعاء بعد أن تضيق الدنيا
قال تعالى: ﴿فَدُّوْا دُعَاءِ عَرِيضٍ﴾. من أبدع الصور. الدعاء يوصف بالعريض؛ كأنه امتد في
المساحة. بعد أن كان الإنسان في النعمة معرضاً، صار في الضر ذا كلام طويل واسع.
اللفظة وحدها تكشف المفارقة. ضاق الواقع. فأتسع الدعاء. لكن الخلل أنه لم يعرف هذا
الاتساع قبل الضيق.

«محيط»: الكلمة الأخيرة التي لا تترك شيئاً خارجها
قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيْطٌ﴾. يصعب أن تختار لفظة أصلح لخاتمة هذه السورة
من «محيط». بعد كل التفاصيل والآفاق والأنفس، تأتي كلمة تحتوي الجميع.
محيط. لا جهة خارجها. ولا شيء منفلت. ولا سر ضائع. واللفظة نفسها تمنح إحساساً
بالدائرة المغلقة على كل شيء؛ كأن السورة التي بدأت بتفصيل الآيات تنتهي بإحاطة لا
يخرج منها شيء.

الإيقاع النفسي في سورة فُصِّلَتْ؛ كيف ينتقل القارئ من الرحمة إلى الرهبة ثم إلى الطمأنينة

ليست سورة فُصِّلَتْ سلسلة معان عقلية فقط، بل لها حركة شعورية دقيقة. تبدأ بهدوء عجيب: ﴿تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم يدخل التوتر مع الإعراض: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾، ثم يشتد مع الأكثنة والوقر والمجباب، ثم يتسع المشهد في خلق الأرض والسماء، ثم تعلو الرهبة مع عاد وثمود، ثم تبلغ ذروتها مع شهادة الجوارح، وبقية ينفج باب من السكينة: ﴿الَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾. ثم يعود القارئ إلى أخلاق الحياة: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ثم ينتهي في سعة الآفاق والأنفس والإحاطة. هذه الحركة تجعل السورة لا تخاطب العقل وحده، بل تنقل القلب نفسه بين الأحوال حتى يتعلم أن يرى الحق لا كمعلومة فقط، بل كتجربة كاملة.

فالقارئ في أولها يطمئن إلى مصدر القرآن، ثم يقلق من موقف المعرضين، ثم يندهش أمام الكون، ثم يخاف من سنن الهلاك، ثم يرتعب من مشهد الجوارح، ثم يستريح إلى تنزل الملائكة، ثم يعود إلى نفسه ليتعلم كيف يعيش، ثم يرفع رأسه في النهاية إلى الآفاق ويعود إلى داخله، ويخرج بكلمة واحدة جامعة: ﴿مُحِيطٌ﴾.

وهذا من جمال السورة: أنها لا تسمح للقلب أن يظل في حالة واحدة حتى يفسد توازنه. لا خوف بلا رجاء، ولا رجاء بلا مسؤولية، ولا كون بلا وحي، ولا آخرة بلا أخلاق، ولا عقيدة بلا أثر.

سورة فُصِّلَتْ وفلسفة القرب والبعد

في السورة شبكة خفية من ألفاظ القرب والبعد. هناك حجاب: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾. وهناك من ﴿يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾. وفي المقابل هناك ملائكة تنزل على المؤمنين، وهناك ولاية: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾، وهناك إحاطة إلهية بكل شيء. وكأن السورة تقول إن المسافة الحقيقية ليست بين الأرض والسماء، بل بين القلب والحق. قد يكون إنسان على الأرض قريباً من السماء بمعنى الإيمان. وقد يكون المصحف في يده وهو بعيد. والقرب هنا ليس قرب مكان، بل قرب استجابة. كلما استجاب القلب اقترب. وكلما صنع حجاباً ابتعد.

القسم الرابع والأربعون

من الحجاب إلى الإحاطة؛ الإنسان يبني جداراً والله لا يخرج من شيء هذه من أجمل المقابلات في السورة. قال المعروضون: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾. وفي آخر السورة: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

هم يبنون حجاباً، والله محيط. كأن السورة تقول: تستطيع أن تحجب قلبك عن سماع الوحي، لكنك لا تستطيع أن تخرج من ملك الله ولا علمه. الحجاب يضر صاحبه، لا الحقيقة. من يغلق النافذة لا يطفى الشمس؛ هو فقط يمنع الضوء عن غرفته. وهكذا الإعراض. لا ينقص الحق شيئاً، إنما يحرم المعرض نفسه.

من «أعرض أكثرهم» إلى «ربنا الله»: الكثرة ليست ميزاً
قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ أَكْثَرُهُمْ﴾. وفي موضع النجاة لم يقل إن الأكثرية هي التي نجت،
بل وصف قوماً بكيفية موقفهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.
وهنا يحزر القرآن الإنسان من سحر العدد. الأكثرية قد تعرض. والقلة قد تستقيم. الحقيقة لا
تستمد قيمتها من الإحصاء. وهذه تربية صعبة؛ لأن الإنسان يحب التأييد الجماعي. يشعر
بالأمان حين يرى كثيرين معه، وربما يشك في نفسه حين يقل رفاقه. لكن السورة تعلمه أن
يسأل أولاً: أين الحق؟ ثم بعد ذلك: من معي؟

لماذا تختم السورة بالآفاق والأنفس لا بمشهد العذاب؟

كان يمكن أن تنتهي السورة بمشهد مهيب من القيامة، لكنها تنتهي بفتح باب النظر: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾. وهذا يجعل النهاية مفتوحة على رحلة المعرفة. كأن السورة بعد كل ما قالت لا تغلق باب الإنسان، بل تقول: انظر أكثر. سترى. في الخارج. وفي الداخل. وهذا معنى بالغ الجمال؛ لأن الوحي لا يخاف المعرفة. كلما اتسع النظر الصادق، كان أمام الإنسان مجال جديد للتأمل.

سورة فُصِّلَتْ لا تطلب منك أن تهرب من العالم بل أن تقرّاه
الإيمان في السورة ليس انقطاعاً عن الكون، بل دخولاً أعمق فيه. انظر إلى السماء. انظر
إلى الأرض. انظر إلى الليل والنهار. انظر إلى نفسك. الوحي لا يقول: أغمض عينيك
لتؤمن. بل افتحهما. لكن تعلم كيف ترى. وهذه هي المسألة. فقد تنظر العين ولا يعتبر
القلب. وقد يكثر العلم ولا تحضر الدلالة. القرآن لا يريد فقط زيادة المعلومات عن العالم،
بل تحول العالم نفسه إلى آية.

حين يصبح التدبير طريقةً في الحياة
بعد سورة فصلت لا ينبغي أن يبقى التدبير نشاطاً يحدث فقط أمام المصحف. يمكن أن
يتحول إلى طريقة في النظر. ترى مطراً فتتذكر الأرض الخاشعة.
تسمع ضوضاء تحاول أن تصرفك عن الحق فتتذكر: ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾.
تشعر بالغرور بعد نعمة فتسمع في داخلك: ﴿هَذَا لِي﴾ وتحذر.
يؤذيك إنسان فتتذكر: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.
تخاف المستقبل فتتذكر: ﴿أَلَا تَخَافُوا﴾.
تجلس وحدك فتتذكر: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.
هنا يصبح القرآن داخل الحياة، لا بجوارها. وهذا هو المقصود الأعظم من التدبير: أن تتحول
الآيات إلى عدسات ترى بها العالم.

سورة فُصِّلَتْ وصناعة القلب الذي لا يضيع بين الأصوات
السورة من أولها إلى آخرها تبني قلباً واضح الاتجاه. عالمه مزدحم: رسل، مكذبون، قرناء،
أصوات تمنع القرآن، آيات كونية، ذكريات أمم، مخاوف وآمال. وسط كل هذا يحتاج
الإنسان إلى نقطة ثابتة. وتعطيه السورة تلك النقطة : ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾.
إذا استقرت هذه الجملة، يمكن لما حولها أن يتحرك دون أن يضيع المركز. ومن هنا كانت
الاستقامة ليست ضيقاً، بل خلاصاً من التشتت.

الخلاصة الكبرى لسورة فُصِّلَتْ؛ افتح قلبك قبل أن تتكلم وجوارحك لو أردنا أن نضغط الرحلة كلها في معنى واحد، فقد يكون هذا المعنى: افتح قلبك للحقيقة في الدنيا، قبل أن تُفتح دفاتر جسدك في الآخرة. اسمع الآن قبل أن يشهد سمعك. انظر الآن نظر اعتبار قبل أن يشهد بصرك. استخدم جلدك وجوارحك في الطاعة قبل أن تنطق بما صنعت. لا تقل: بيننا حجاب. لا تقل: في آذاننا وقر. ولا تجعل القرناء يزينون لك العمى. قل بدل ذلك: ﴿رَبَّنَا اللَّهُ﴾.

ثم امش. وإذا تعثرت، استغفر. وإذا أساء إليك أحد، ادفع بالتي هي أحسن. وإذا رأيت الجمال، اسجد للخالق لا للمخلوق. وإذا مات فيك شيء، فتذكر الأرض التي اهتزت وربت. وإذا خفت، فتذكر أن نهاية الاستقامة ليست الوحدة، بل الملائكة. وإذا ظننت أن شيئاً من قصتك ضاع، فاقرأ آخر كلمة: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

وهنا تبدأ الخاتمة الكبرى للكتاب لا بوصفها إنهاءً لسورة فحسب، بل بوصفها جمعاً لكل خيوطها في سؤال واحد: أيُّ إنسان يريد سورة فُصِّلَتْ أن تخرج به من بين آياتها؟

أي إنسان تريد سورة فَصِّلَتْ أن تخرجه من بين آياتها؟
إذا قرأت السورة من أولها إلى آخرها بهذا النفس المتصل، بدا واضحاً أنها لا تريد قارئاً مثقفاً بالمعاني فقط، بل إنساناً جديداً في هيئة وعيه، وفي طريقة نظره، وفي علاقته بالله، وفي تعامله مع الناس، وفي قدرته على فهم نفسه. إنها لا تجمع أمامه حقائق ليتأملها ثم ينصرف، بل تعيد تشكيل مركزه الداخلي كله حتى يخرج منها بسمع آخر، وبصر آخر، وحساسية أخرى تجاه الحياة. تريد إنساناً يسمع قبل أن يعترض، وينظر قبل أن يحكم، ويعرف حجم نفسه أمام الكون، ولا يجعل النعمة حجاباً، ولا الألم مبرراً لليأس، ولا القوة سبباً للغرور، ولا الخصومة ذريعة لفقدان الأخلاق. تريد إنساناً يستطيع أن يعيش وسط عالم مضطرب دون أن يصبح قلبه نسخة من اضطرابه. وتلك ربما واحدة من أعظم وظائف الوحي: لا أن يغير الواقع أولاً، بل أن يصنع الإنسان القادر على الوقوف في الواقع دون أن يبتلعه.

الإنسان الذي يعرف أن الوحي ليس زينةً للروح
تبدأ السورة بالقرآن: ﴿تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ومن هنا يتكون أول ملامح الإنسان الذي تريد السورة صناعته: إنسان يتلقى الوحي بوصفه مصدراً أعلى للمعنى، لا نصاً إضافياً في مكتبة أفكاره.

فالوحي عنده لا يأتي بعد أن يقرر هو ما يريد، ثم يبحث في النص عما يؤيده. بل يأتي ليعيد ترتيب إرادته نفسها. وهذه نقطة فاصلة في معنى العبودية، لأن الإنسان قد يحترم القرآن، ويعظمه، ويستشهد به، لكنه مع ذلك يضع رغباته قبله. أما الذي تربى بسورة فصلت فيتعلم أن يسأل: ماذا يريد الله مني هنا؟ لا: كيف أجعل النص يوافق ما أريد؟ وهذا هو الفرق بين قراءة تبحث عن الهداية وقراءة تبحث عن التبرير.

الإنسان الذي لا يخاف من وضوح الحقيقة
قال تعالى: ﴿كَتَابُ فَصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾. والإنسان الذي تبنيه السورة لا يهرب من الوضوح. بعض الناس يحبون المناطق الرمادية لأنها تمنحهم حرية أكبر في المراوغة، أما الحقيقة الواضحة فتضيق على الهوى.

لكن المؤمن لا يخاف من أن يرى نفسه كما هي. إذا كان مخطئاً، اعترف. إذا ظهر له الحق، تبعه. إذا اكتشف خلافاً في تصور قديم، لم يجعل كرامته مرتبطة بالبقاء عليه. إن

أعظم الحرية العقلية أن لا تكون محتاجاً إلى أن تكون مصيباً دائماً، بل أن تكون محتاجاً إلى الحق دائماً. الإنسان الذي لا يبني أكنةً حول قلبه تعرض السورة أناساً قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾. أما الإنسان الذي تريده السورة فهو على العكس: يحرس قلبه من التغطية.

والقلب لا يُعطى في لحظة واحدة، بل عبر تراكبات صغيرة؛ ولذلك يحتاج إلى تنظيف مستمر. توبة بعد الذنب، مراجعة بعد الغضب، محاسبة بعد المدح، خشوع بعد الغفلة. القلب المفتوح ليس قلباً لا يخطئ، بل قلباً لا يصير على إغلاق نفسه. الإنسان الذي يعرف أن الكون ليس صامتاً حين ترى السماء تقول بأمر الله: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، والليل والنهار والشمس والقمر آيات، والأرض الخاشعة تهتز بالماء، يتغير موقعك من العالم.

لا تعود الأشياء محايدة. تتحول إلى تذكير. وهذا الإنسان يستطيع أن يجد في الطريق إلى عمله آية، وفي المطر آية، وفي جسده آية، وفي تعاقب الليل والنهار آية. لا يحتاج في كل مرة إلى حدث خارق لكي يستيقظ. يكفيه أن ينظر جيداً.

الإنسان الذي يفهم أن القوة امتحان وليست شهادة براءة عاد قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾. والإنسان الذي يخرج من السورة يفهم أن القوة لا تثبت صحة صاحبها. قد يكون قوياً ومخطئاً، وقد يكون ضعيفاً ومحققاً.

ومن هنا يتحرر من الفتنة بالقوة الظاهرة. لا يعبد المنتصر لمجرد أنه انتصر. ولا يحتقر المظلوم لمجرد أنه ضعيف. ولا يقيس الحق بحجم الجيوش أو المال أو النفوذ. هذه واحدة من أعظم التحولات الفكرية التي يصنعها القرآن: فصل الحقيقة عن ميزان الغلبة العاجلة. الإنسان الذي لا يستحب العمى ثمود عرفوا ثم اختاروا غير ما عرفوا. وهنا تكون التربية أشد: لا يكفي أن تعرف الحق، بل يجب أن تحب أن تعرفه حتى إن كان ضدك. الإنسان الصادق لا يقول: أعطني الحقيقة التي تريحي. بل: أعطني الحقيقة ولو جرحت صورتي القديمة. وهذه الشجاعة نادرة. لأن بعض الحقائق تكلف الإنسان إعادة بناء نفسه. لكن لا شيء أعظم من أن يعيش المرء على وهم لأنه لم يرد ألم الاعتراف. الإنسان الذي يعرف أن جسده أمانة

بعد شهادة السمع والبصر والجلود لا يعود الجسد أداة صامتة. يصير أمانة. فتغير علاقتك بالنظر، وبالسماح، وبالكلام، وبالحركة. تسأل: ماذا أدخل إلى قلبي من عيني؟ ماذا أجعل

أذني تستقبل؟ ماذا أحمل لساني؟ وهنا يصبح التقوى شيئاً شديداً القرب من التفاصيل اليومية. ليست فقط مواقف كبرى. قد تبدأ من نظرة. أو كلمة. أو صوت سمحت له أن يقيم طويلاً في داخلك. الإنسان الذي لا يثق بكل زينة قال تعالى: ﴿فَرَيْنَا هُمْ﴾. ومن هنا يتعلم المؤمن الشك الصحي في الأشياء التي تبدو جميلة جداً للهوى.

ليس كل ما يوافقني حقاً. وليس كل ما يريحني نافعاً. وليس كل ما يزينه الناس لي خيراً. الإنسان الناضج لا يسأل فقط: هل أحب هذا؟ بل: هل ينبغي أن أحبه؟ وهذا انتقال من عبودية الرغبة إلى مسؤولية الرغبة. الإنسان الذي يعرف قيمة الصلابة

حين يرى نهاية القرناء في الدنيا، ثم يسمع يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾، يفهم أن اختيار من يسمع لهم ليس تفصيلاً.

من حولك يشاركون في بناء صورتك عن العالم. ولهذا فإن الصلابة ليست مجرد تسليية، بل بيئة روحية وفكرية. اختر من يعيدك إلى نفسك حين تضع، لا من يصفق لك كلما انحرفت. اختر من يذكرك بالله، لا من يريحك من الله.

الإنسان الذي لا يتكلم عن الله ويغيب عنه تقول السورة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾. ومن هنا تريد إنساناً تتصل كلمته بحياته.

لا يتحول الدين عنده إلى مهنة لغوية. ولا يصبح البيان بديلاً عن العمل. بل يحاول أن يجعل لسانه امتداداً لما يريد أن يكونه. وهنا تكون الكتابة والدعوة والقول مسؤولية، لا منصة للذات.

الإنسان الذي لا يسمح للإساءة أن تصنع له ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. هذه الآية وحدها كافية لتصنع إنساناً مختلفاً. فالعالم يدفعك باستمرار إلى ردود فعل سريعة. القرآن يريد منك أن تختار، لا أن تنفجر.

أنت لست صديقاً لخصمك. ولا رد فعل على أذى الناس. يمكنك أن تختار مستوى أعلى من الرد. وهذا شكل من أشكال الحرية الداخلية لا يعرفه من تحكمه انفعالاته. الإنسان الذي يعرف متى يستعيد حين يأتي النزغ لا يتباهى بقوته النفسية، بل يقول: أحتاج الله. وهنا تتجلى العبودية في أن تعرف حدودك. بعض المعارك لا تخاض بالثقة بالنفس وحدها.

تحتاج استعادة. وتحتاج افتقاراً. وتحتاج اعترافاً بأن الإنسان قد يهزم نفسه إذا ترك لها. الإنسان الذي يرى في الجفاف وعداً بالحياة الأرض الخاشعة تعلم المؤمن ألا يحكم على الأشياء من حالها الراهنة فقط. القلب قد يبس ثم يحيى. والطريق قد يغلق ثم يفتح. والأمل قد يضعف ثم يعود. وهذا لا يعني بناء أوهام، بل الإيمان بأن القدرة الإلهية أوسع من المشهد اللحظي.

كم من شيء حكمنا عليه بالنهاية، ثم بدأ من جديد. ولهذا فإن اليأس حكم متعجل على قصة لم نقرأ آخرها. الإنسان الذي يعرف أن القرآن هدى وشفاء لا يقرأ القرآن فقط لكي يعرف أحكاماً، بل ليصلح اتجاهه ودخله معاً. إذا ضاع الطريق: هدى. وإذا جرح القلب: شفاء. وهذا يجعله يعود إلى القرآن لا في مواسم المعرفة وحدها، بل في مواسم الاضطراب. حين يخاف. وحين يحزن. وحين يحار. وحين تتعبه نفسه. يعود لا كمن يبحث عن تعويذة سريعة، بل كمن يدخل على خطاب يعيد ترتيب رؤيته كلها. الإنسان الذي لا يقول: «هذا لي» حين تأتي النعمة يعرف لغتها الصحيحة. لا يقول في داخله: أنا صنعت كل شيء. ولا يرى نفسه أصل الفضل. يعترف بسعيه، لكنه يعرف أن السعي نفسه نعمة، والفرصة نعمة، والقدرة نعمة، والنتيجة نعمة.

وهذا لا يلغي كرامة العمل، بل يمنع العمل من أن يتحول إلى صنم للذات. الإنسان الذي لا ينهار عند أول مس للشر

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مَسَّ الشَّرُّ فَيُتَوَسَّ قَنُوطٌ﴾. السورة تريد قلباً أوسع من اللحظة المؤلمة. يحزن، لكن لا يحكم على المستقبل بالحزن. يتعب، لكنه لا يجعل التعب عقيدة. يبكي، لكنه لا يقول: انتهى كل شيء. لأن عنده معرفة أعلى من شعوره الحالي. وهذه من أجمل ثمرات اليقين: لا يلغي المشاعر، لكنه يمنعها من أن تصبح أحكاماً مطلقة. الإنسان الذي يعرف أن الاستقامة ليست لحظة

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾. ليس المهم أن تشتعل في لحظة، بل أن تمشي.

العبرة ليست بالقفزة الأولى، بل بالاتجاه الطويل. قد يكون التغير الحقيقي بطيئاً، لكنه ثابت. وهذا يحرر المؤمن من إدمان الحماسة المؤقتة. لا يحتاج كل يوم إلى شعور استثنائي. يحتاج إلى وفاء.

الكتاب الذي لا يريد قارئاً مدهوشاً فقط، بل قارئاً متحوّلاً
 يمكن لأي قارئ أن يخرج من سورة فصلت مدهوشاً بصورها، لكن السورة تطلب شيئاً
 أبعد من الدهشة. إنها تريد أن تتحول الدهشة إلى موقف.
 فالدهشة من قوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾ ينبغي أن تغير ما تسمع.
 والدهشة من قوله: ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ ينبغي أن تغير نظرتك إلى اليأس.
 والدهشة من قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ ينبغي أن تغير فهمك للاستقامة.
 وإلا بقي الجمال خارجك. والقرآن لا يريد أن يكون جميلاً أمامك فقط. يريد أن يصنع
 الجمال فيك. المعرفة التي لا تغير قد تتحول إلى حجة هذه حقيقة شديدة الرهبة. كلما زادت
 معرفتك بالحق دون استجابة، زادت مسؤوليتك. فالقرآن ليس متحفاً للمعاني. كل معنى
 يدخل عليك يطلب منك شيئاً. وهذا لا يعني أن الإنسان يستطيع تطبيق كل شيء دفعة
 واحدة، لكن لا ينبغي أن يرضى بأن تكون علاقته بالوحي علاقة إعجاب لا حركة فيها.

سورة فُصِّلَتْ وتربية الإنسان على الصدق مع نفسه
ربما كان الصدق مع النفس من أكثر الصفات التي تحتاجها هذه السورة. لأن كثيراً من
أمراضها أمراض تبرير. عاد لا يرون غرورهم. ثمود يختارون العمى. القرناء يزينون.
الإنسان يقول: ﴿هَذَا لِي﴾.

المعرض يعلن أن بينه وبين الحق حجاباً. أما العلاج فيبدأ حين يسقط التبرير. أن تقول: نعم،
أنا أغار. نعم، أنا متكبر هنا. نعم، هذه ليست غيرة على الحق كلها؛ فيها انتصار للنفس.
نعم، أنا أستخدم عبارة دينية لأخفي رغبة شخصية. هذه الاعترافات لا تحطم الإنسان. بل
تبدأ تحريره. من عرف مرضه عرف من أين يبدأ ليس أخطر المريض من مرضه شديد،
بل من لا يرى مرضه. ولهذا كان كشف النفس رحمة. قد تؤلمك الحقيقة عن نفسك،
لكنها أفضل من راحة مبنية على وهم. وسورة فصلت ممتلئة بالمرايا. كلما نظرت فيها، قد
ترى شيئاً منك.

سورة فَصَّلَتْ والإنسان الذي يعيش بين آيتين
يمكن اختصار حياة المؤمن في السورة بين آيتين : ﴿تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .
و﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ .

الأولى تخبرك من أين جاء الطريق. والثانية تخبرك داخل أي ملك تمشي. أنت بين رحمة
أنزلت الهداية، وإحاطة لا يضيع فيها شيء. وهذا يمنح الحياة بناءً مختلفاً. ليست رحلة في
كون مجهول. ولا محاولة وحيدة لفهم المصير. هناك خطاب. وهناك رب محيط. وبينهما
الاستقامة ما بين الآيتين يقع دور الإنسان. أن يسمع. ويستجيب. ويخطئ. ويستغفر.
ويستقيم. ويحسن. ويعود. وهذه هي القصة كلها.

الخالمة الكبرى: حين يخرج القارئ من السورة وهو يسمع العالم كله يقول: الله

بعد كل هذه الرحلة، لا تعود سورة فصلت مجرد أربع وخمسين آية تحفظ ترتيبها، بل تتحول إلى عالم كامل. تسمع فيها القرآن ينزل، والرسل تدعو، والمكذبين يعترضون، والأرض والسماء تستجيبان، وعاد تكبر، وثمود تستحب العمى، والريح تعصف، والجوارح تشهد، والملائكة تنزل، والداعية يدعو، والمؤمن يدفع بالتي هي أحسن، والأرض تهتز بعد موتها، والآفاق تنفتح، والنفس تُقرأ، ثم ينتهي كل شيء داخل الإحاطة. وكأن السورة أخذت الأشياء التي نظنها صامته ومنحتها أصواتها. السماء تقول: طائعة. الأرض تقول: طائعة. الجوارح تقول: شهدنا. التاريخ يقول: لا تغتر بالقوة. النعمة تقول: لا تقل هذا لي. المصيبة تقول: لا تقنط. الخصومة تقول: لا تسمح للشّر أن يعيد تشكيكك. الكون يقول: لا تسجد لي، اعبّر مني إلى خالقي.

والقرآن يقول لك منذ أول الطريق: أنا تنزل من الرحمن الرحيم. ثم تركك السورة في نهايتها أمام حقيقة لا يستطيع العقل أن يتجاوزها، ولا القلب أن يجد خارجها موضعاً: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

ولعل أجمل ما يمكن أن يحدث للقارئ بعد سورة فصلت ألا يخرج منها وهو يقول: فهمت السورة. بل وهو يشعر أن السورة فهمته هو. كشفت له أبوابه المغلقة. وأرته بعض أكنته. وأسمعته صوته وسط الضجيج. وأوقفته أمام غروره. وأرته هشاشته. ثم لم تتركه في الخوف، بل قادتة إلى أعظم جملة يمكن أن يبني بها حياته: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾. كأن هذا هو جواب السورة كله. من الرحمن الرحيم نزل البيان. وفي الآفاق والأنفس انتشرت الآيات. وفي التاريخ ظهرت السنن. وفي الجوارح حفظت الشهادة. وفي الطريق جاءت الاستقامة. وفي النهاية نزلت الملائكة. ثم انغلق المشهد على الإحاطة. وهكذا لا يعود المؤمن بعد السورة إنساناً يعيش في عالم صامت. كل شيء حوله يشير. وكل شيء داخله يشهد.

وكل طريق يسأله: إلى أين تتجه؟ والجواب الذي يستحق أن يُعاش عمر كامل من أجله: ربنا الله. ثم الاستقامة.